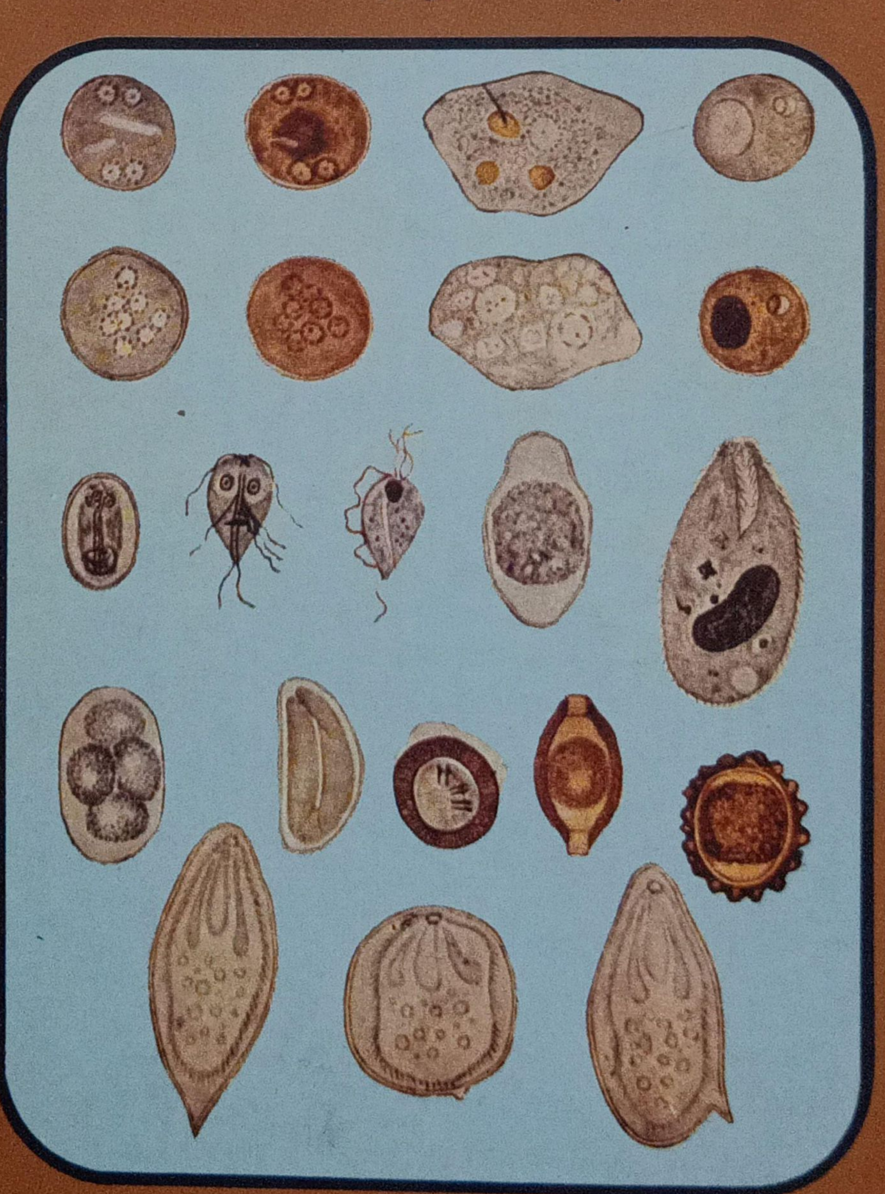
الدكتور محمد علي البار

العدوى

بين الطب وحديث المصطفى ﷺ



الدار السعودية للنشر والتوزيع



العَدْوَى

بَيْنَ الطِّبِّ وَحَدِيثِ المُصْطَفَى

بسم الله الرحمن الرحيم

الدكتور محمد علي البار

العدوى

بين الطب وحديث المصطفى ﷺ

تقديم

فضيلة المرحوم الإمام الشيخ

عبد الحليم محمود

الدار السعودية للنشر والتوزيع

الطبعة الخامسة

١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م



الادارة : جدة ـ البغدادية ـ عمارة الجوهرة ـ الدور الثاني ـ شقة رقم ٧ ـ ١٢
• تليفون ٦٤٣٢٨٢١/٦٤٢٤٠٤٣
• تلكس ٤٠٤٣٥١ نشراً . ص . ب ٢٠٤٣

المكتبة شارع الملك عبد العزيز • تليفون : ٦٤٧٨٧٢٣ ـ جدة

المكتبة شارع فلسطين ـ مركز الزومان • تليفون : ٦٦٠٨٩٦٤ ـ جدة

الدمام شارع الملك سعود ـ ص . ب ٨٩٩ ـ الدمام ٣١٤٢١
• تليفون المكتبة : ٨٣٢٣٥١٥/٨٣٣٥٥٢٠
المكتب : ٨٣٤٧٧٦٩/٨٣٤٧٨٣٧

الرياض السليمانية ـ ص . ب ٩٤٧٣ • تليفون : ٤٦٤٧٥١٥/٤٧٦٩٠٨٦



الأحاديث النبوية الواردة في العدوى

عن أبي هريرة عن النبي ﷺ :

«لا عدوى ولا طيره ولا هامة ولا صفر وفر من المجذوم كما تفر من الاسد » .

رقم ٥٧٠٧ (كتاب الطب) أخرجه **البخاري**

« لا عدوى ولا طيره ولا هامة ولا صفر » .

٥٧١٧ (كتاب الطب) **البخاري** ومسلم

عن أبي هريرة عن النبي ﷺ :

« لا عدوى ولا صفر ولا هامة فقال اعرابي : يا رسول الله فما بال الابل تكون في الرمل كأنها الظباء فيجيء البعير

الأجرب فيدخل فيها فيجربها كلها . قال : فمن أعدى الأول ؟ » .

٥٧٧٠ كتاب الطب أخرجه **البخاري** ومسلم

عن أبي هريرة عن النبي ﷺ :

« لا يورد ممرض على مصح » .

أخرجه البخاري ومسلم

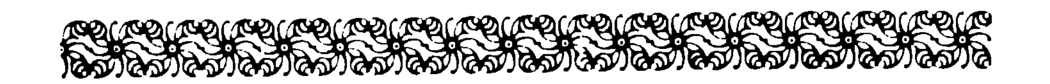
عن عمرو بن الشريد عن أبيه قال :

« كان في وفد تثقيف رجل مجذوم فأرسل اليه النبي ﷺ إنّا قد بايعناك » .

أخرجه مسلم

وثبت عن جابر أن النبي ﷺ أكل مع المجذوم في قصعة واحدة وقال له : « كل ثقة بالله وتوكلاً عليه » .

أخرجه الترمذي



مقدمة

بقلم الامام الأكبر
الدكتور عبد الحليم محمود
شيخ الأزهر

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

فالكتاب الذي بين أيدينا « العدوى بين الطب وحديث المصطفى عليه الصلاة والسلام » لمؤلفه الدكتور محمد علي البار المتخصص في الأمراض الباطنية من أمتع الكتب التي اطلعنا عليها في موضوع العلاقة بين الاسلام والعلم في دائرة خاصة من دوائر العلم وهي الطب الحديث ، بل في دائرة أخص وهي الأمراض المعدية .

والكتاب يستند إلى أحدث البحوث العلمية في المجال الذي تعرض له ، ويستند أيضا إلى اوثق مصادر التراث الاسلامي التي تعرضت لماجاء في الحديث النبوي الشريف عن العدوى .

والأمر الذي لا شك فيه أن مؤلف الكتاب أحاط علما بموضوعه في الجانبين : العلمي والاسلامي ، ووصل بنظرته العميقة إلى رؤ ية واضحة لا تجد فيها أدنى اختلاف بين العلم الصحيح ، والنص الصريح .

والرؤ ية التي عرضها الكاتب تبين في جلاء معجزة الاسلام العلمية ، حيث تبين أن الأمر فيه لم يقتصر على مجرد براءته من الوقوع في أخطاء علمية لا ينجو من الوقوع فيها البشر ـ وهذا في حد ذاته إعجاز باهر اعترف به بعض المستشرقين[١] ، وإنما يتعدى ذلك إلى إقرار حقائق علمية طبية لم يتوصل إليها الإنسان بعمله إلا في العصر الحديث ، ومن هذه الحقائق : « العدوى » ، وآثارها وحدودها .

يقول المؤلف عن دور الميكروبات في العدوى إنها (ليست وحدها المسببة للمرض والعدوى . وهناك أسباب مجهولة تتحكم في الطبيعة العدوانية لهذا الميكروب فتحولها إلى طبيعة مسالمة ، أو تتحكم في الطبيعة المسالمة لذلك الميكروب فتحوله إلى معتد أثيم . . . وهناك أيضا الأسباب التي تتحكم في

---

(١) انظر ما كتبه الباحث الفرنسي موريس بوكاي في كتابه « دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة » **ترجمة دار المعارف**

المقاومة الموجودة لدى الإنسان فتجعلها قوية عارمة تكتسح كل عدوان ، أو تجعلها ضعيفة هزيلة تنهزم في كل ميدان)[١]

ثم هو بعد ذلك يضع مسألة الأسباب في وضعها الصحيح مستشهدا بقول ابن القيم :

(فالمنحرفون طرفان مذمومان : إما قادح في التوحيد بالأسباب ، وإما منكر للأسباب بالتوحيد ، والحق غير ذلك ، وهو اثبات التوحيد والأسباب وربط أحدهما بالآخر . . .) .

ومن الأسباب (التوكل على الله والثقة به الذي هو من أعظم الأسباب التي يدفع بها المكروه والمحذور) .

والله سبحانه وتعالى هو (خالق أسباب الداء وأسباب الدواء . . . وعلى هذا قيام مصالح الدارين .

فإن تعطيل الأسباب وإخراجها عن أن تكون أسبابا ، تعطيل للشرع ومصالح الدنيا .

والاعتماد عليها واعتقاد أنها أسباب تامة شرك بالله عز وجل ، وجهل به ، وخروج عن حقيقة التوحيد . . .) .

---

(١) ص ٣٥

والكتاب على هذا النحو من أنفع الكتب على وجازته ، ونحن ندعو القارىء إلى تدبره ، وإلى الإفادة به ، ونرجو للمؤلف به من الله حسن الثواب في الدنيا والآخرة .

دكتور عبد الحليم محمود
شيخ الأزهر

القاهرة في غرة رمضان المعظم
١٣٩٨ هـ

تمهيد

الحمد لله الذي جعل الاسباب كلها بيده يصرفها كما يشاء . . ولم يجعل الأسباب آلهة تعبد من دونه فجعلها مربوبة مقهورة بيده . . وجعل من بين هذه الاسباب ما يؤدي الى الصحة وجعل منها ما يؤدي الى المرض . . كما جعل منها ما يؤدي الى النجاة ومنها ما يؤدي الى النار وبئس القرار . . والصلاة والسلام على خيرته من خلقه وصفوته من أنسه وجنه وآله ومن والاه . . وهو الذي دل العباد الى ربهم وأرشدهم الى مولاهم . . واعلمهم أن التوكل عليه وحده هوسبيل المهتدين الراشدين . . وأن المرض والصحة بيد الله تعالى كما أن الامور كلها منه واليه . . وأرشدهم الى أن الاسباب الفاعلة لذلك مربوبة مقهورة . . وأن الله الذي خلقها قادر في كل حين وآن أن يجعل من الداء الوبيل دواء ومن الدواء النافع الناجع داء

عضالا كما نبههم الى أن العدوى لا تحصل بذاتها وانما تحصل بقدر الله وقدرته . . فإذا شاء جعل هذه الاسباب سارية وإذا شاء سلبها قدرتها على التأثير بأسباب أخر تعارضها وتضادها . . منها ما اتيح لنا أن نعلمه بعد الاكتشافات العلمية الواسعة . . ومنها ما لم يتح لنا أن نعلم منه الا القليل رغم الفتوحات العلمية الباهرة . . .

وموضوع العدوى والاحاديث الواردة فيه قد أثارت جدلا في الماضي كما تثير الى اليوم شكوكا لدى بعض الشباب . . نتيجة لما يبدو في ظاهرها من تعارض كحديث « لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صفر . . وفر من المجذوم كما تفر من الأسد » . . وحديث « لا عدوى ولا طيرة ولا صفر » وحديث « لا يورد ممرض على مصح » .

وكلها أحاديث صحيحة أخرجها البخاري ومسلم . . وليس في هذه الاحاديث النبوية الشريفة من تعارض في حقيقة الأمر فأحاديث رسول الله ﷺ التي صحت عنه يصدق بعضها بعضاً . . فهو « لا ينطق عن الهوى إن هو وحي يوحى » . . وأحاديثه ﷺ هي الحق الذي لا مرية فيه . . وتتوالى الاحقاب والأزمنة فلا تزداد على الأيام الا نصاعة ووضوحا وجلاء . .

وها هي الاكتشافات العلمية الحديثة توضح ما انبهم على بعض الافهام وأشكل على بعض المدارك فتبدو الاحاديث النبوية الشريفة متألقة سامية كالشمس في علاها تضيء للعالمين النور والدفء والطمأنينة والحياة . .

وقد حاولت في هذا البحث إظهار بعض الاسرار التي تجلت على ضوء المعلومات الطبية الحديثة المتعلقة بموضوع العدوى . . والتي توضح ما قد يبدو من تعارض ظاهري فيها . .

وقد ذكرت باختصار أقوال علماء الاسلام . . واوضحت كيف أن ما ذهبوا اليه في شرحهم لأحاديث العدوى هو الذي أكدته الأيام وأكدته الاكتشافات العلمية الحديثة . . وأرجو أن يجد القارىء في ذلك ما يزيل اللبس والغموض الذي قد يتبادر الى فهمه عند قراءته لأحاديث العدوى لاول وهلة . .

ولا نلوم القارىء اذا التبس عليه الأمر فقد التبس على بعض العلماء الاجلاء من قبل . . فقد ثبت أن أبا هريرة رضي الله عنه كان يحدّث بحديث لاعدوى ولاطيرة . . ويحدث بحديث لا يورد ممرض على مصح . . فقال الحارث بن أبي ذئاب وهو ابن عم لأبي هريرة : « قد كنت أسمعك يا أبا هريرة

تحدثنا حديثا قد سكت عنه . . كنت تقول قال رسول الله ﷺ : لا عدوى » فأبى ابو هريرة أن يحدّث بذلك . وقال لا يورد ممرض على مصح . فيقول الراوي فما أدري أنسيَ أبو هريرة أو نسخ أحد القولين القول الآخر !

ويقول الامام النووي في شرح مسلم تعليقا على هذا ما يلي : « قال جمهور العلماء يجب الجمع بين هذين الحديثين وهما صحيحان . قالوا وطريق الجمع أن الحديث لا عدوى : المراد به نفي ما كانت الجاهلية تزعمه وتعتقده أن المرض والعاهة تعدي بطبعها لا بفعل الله تعالى . وأما حديث « لا يورد ممرض على مصح » فأرشد فيه الى مجانبة ما يحصل الضرر عنده في العادة بفعل الله وقدره . فنفى في الحديث الأول العدوى بطبعها ولم ينفِ حصول الضرر عند ذلك بقدر الله تعالى وفعله . . وأرشد في الثاني الى الأحتراز مما يحصل عنده الضرر بفعل الله وإرادته وقدره . فهذا الذي ذكرناه من تصحيح الحديثين والجمع بينهما هو الصواب الذي عليه .جمهور العلماء ويتعيّن المصير اليه . . ولا يؤثر نسيان أبي هريرة لحديث لا عدوى لوجهين : أحدهما أن نسيان الراوي للحديث الذي رواه لا يقدح في صحته عند جماهير العلماء بل يجب العمل به . والثاني أن هذا اللفظ ثابت من روايات أخرى . ويستطرد

الامام النووي فيقول « وقال بعض العلماء أن حديث لا يورد ممرض على مصح منسوخ بحديث لا عدوى وهذا غلط لوجهين : أحدهما أن النسخ يشترط فيه تعذر الجمع بين الحديثين ولم يتعذر والثاني أنه يشترط فيه معرفة التاريخ وتأخر الناسخ . . وليس ذلك موجوداً هنا » .

ا . هـ . من شرح صحيح مسلم

ويقول الامام ابن القيم في كتابه القيم «مفتاح دار السعادة» : « وأما قوله ﷺ « لا يورد ممرض على مصح » فالممرض الذي له إبل مراض والمصح الذي له إبل صحاح . . وقد ظن بعض الناس أن هذا معارض لقوله لا عدوى » . . وذكر ابن القيم أن أول من ظن ذلك هو ابن عم لأبي هريرة الحارث بن أبي ذئاب . . وعليه فإن أبا هريرة رفض أن يحدث بحديث لا عدوى حتى لا يلتبس الأمر على مثل الحارث بن أبي ذئاب . . وتمسك بحديث « لا يورد ممرض على مصح » . ثم يقول ابن القيم « فالحديثان صحيحان . . ولا نسخ ولا تعارض بينهما بحمد الله بل كل منهما له وجه . . وقد طعن أعداء السنة في أهل الحديث وقالوا يروون الاحاديث التي ينقض بعضها بعضا ثم يصححونها . . والأحاديث التي تخالف

العقل فانتدب أنصار السنة للرد عليهم ونفي التعارض عن الأحاديث الصحيحة . . وبيان موافقتها للعقل » .

ويستطرد ابن القيم فيورد مختلف الاراء بكل تجرد وأمانة علمية مثل تلك الآراء التي تزعم النسخ أو تلك التي تزعم أن كلام النبي ﷺ في هذه المواضيع إنما هو من حديثه في شؤون الدنيا وقد قال في قصة تأبير النخل عندما أمرهم بتركه فأثمر شيصا « أنتم أعلم بشؤون دنياكم » . . وقد وجدنا نحن كثيرا ممن نحا هذا النحو منهم العلامة ابن خلدون حيث يقول في المقدمة : « والطب المنقول في الشرعيات من هذا القبيل وليس من الوحي في شيء وإنما هو أمر كان عاديا للعرب ووقع في ذكر أحوال النبي ﷺ من نوع ذكر أحواله التي هي عادة وجبّلة لا من جهة أن ذلك مشروع على ذلك النحو من العمل فإنه ﷺ إنما بعث ليعلّمنا الشرائع ولم يبعث لتعريف الطب ولا غيره من العاديات . وقد وقع له في شأن تلقيح النخل ما وقع فقال: أنتم أعلم بأمور دنياكم . . فلا ينبغي أن يحمل شيء من الطب الذي وقع في الأحاديث المنقولة على أنه مشروع فليس هناك ما يدل عليه اللهم الا إذا استعمل على جهة التبرك وصدق العقد الإيماني فيكون له أثر عظيم في النفع . وليس ذلك في الطب المزاجي وإنما هو من آثار الكلمة الإيمانية كما وقع في مداواة

المبطون بالعسل والله الهادي الى الصواب لا رب سواه »

ا هـ . من مقدمة ابن خلدون

كذلك قال مثل هذا الرأي من المتأخرين الشيخ عفيف طبارة في كتابه روح الدين الاسلامي . . والشيخ علي طنطاوي في كتابه تعريف عام بدين الاسلام والدكتور موريس بوكاي في كتابه القرآن الكريم والتوارة والانجيل والعلم.وخلاصة رأيهم أن مـا جاء عن النبي ﷺ في شؤون الطب عامة لا يؤخذ مأخذ الشريعة فالنبي ﷺ يقول فيه بدون وحي . . وهو بذلك قابل للخطأ . . وأما ما كان من أمر الشريعة فهو وحي يوحى علمه شديد القوى وهو معصوم . . ويلخص ابن القيم موقفهم أجمل تلخيص فيقول : « وسلك بعضهم مسلكاً آخر فقال ما يخبر به النبي نوعان : أحدهما يخبر به عن الوحي فهذا خبر مطابق لمخبره من جميع الوجوه ذهنا وخارجا ، وهو الخبر المعصوم . . والثاني ما يخبر به عن ظنه من أمور الدنيا التي هم أعلم بها منه . فهذا ليس في رتبة النوع الأول ولا تثبت له أحكامه . . فهكذا إخباره عن عدم العدوى إخبار عن ظنه ! ! كـإخباره عن عدم تأثير التلقيح لا سيما وأحد البابين قريب من الآخر بل هو في النوع واحد . فإن إتصال الذكر بالأنثى وتأثيره به كاتصال المُعدَى بالمعدِي وتأثره به . ولا ريب أن كليهما من أمور

الدنيا ، لا مما يتعلق بالشرع . فلما تبيّن له ﷺ من أمر الدنيا الذي أجرى الله سبحانه عادته به إرتباط هذه الأسباب بعضها ببعض وتأثير التلقيح في صلاح الثمار ، وتأثير ايراد الممرض على المصح أقرهم على تأبير النخل ونهاهم أن يورد ممرض على مصح . . قالوا وإن سمي هذا نسخا بهذا الاعتبار فلا مشاحة في التسمية إذا ظهر المعنى » .

وقد ردّ عليهم ابن القيم أقوالهم ردا علميا مفصلا كما أوردناه في صلب البحث فلا نعيده هنا . .

والمقصود أن الأفهام قد يلتبس عليها الأمر قديما وحديثا في هذه الاحاديث . . وتوضيح الحقائق ممن اتضحت له واستبانت واجب ديني وفرض عيني لا مندوحة عنه . .

وقد وجدت في الأبحاث الطبية الحديثة ما ينير السبيل ويظهر عظمة المصطفى صلوات الله عليه . . إذ أن هذه الأبحاث تؤكد ما جاء في الأحاديث النبوية الشريفة بل وتكاد تطابقها . . وتؤكد أيضا ما ذهب اليه أئمة الاسلام في شروحهم لهذه الاحاديث . . فرأيت أن من الواجب المحتم عليّ أن أنقل نتائج هذه الابحاث ومطابقتها للحديث النبوي . . حتى يُزال اللبس وينجلي الغموض . . ويزداد

المؤمن ايمانا ويقينا بأنه على المحجة البيضاء وأنه لا يزيغ عنها الا هالك . . وأن ما صح عن رسول الله ﷺ هو الحق الذي لا مرية فيه . . سواء كان ذلك في شأن التشريع أم في شأن الطب . . وأن حديثه صلوات الله عليه هو النور الذي يضيء الظلمات في جميع مسالك الحياة ودروبها . . وأن السير على هدى ذلك النور هو الذي يؤدي الى الفلاح والنجاح . . وما عداه فهو السقوط في الهاوية . .

وقد أوضحنا ذلك في بحثين متصلين أتم الاتصال وأوثقهما . . أولهما مبحث العدوى والثاني ما ورد عن رسول الله ﷺ في الطاعون . . وكل منهما مكمل للآخر وموضح له . . فالطاعون من أهم الأوبئة والأمراض المعدية وقد فصلنا القول فيه . . وكيف أن ما جاءت به الأحاديث النبوية الشريفة لم يكشف النقاب عنه الا في القرن العشرين . .

ويتأكد بذلك أن كل ما صح عن رسول الله ﷺ هو من الوحي الإلهي . . الذي يقول الله عنه : « **وما ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحي يوحى ، علمه شديد القوى ، ذو مِرّة فاستوى ، وهو بالافق الاعلى . . ثم دنا فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى ، فأوحى إلى عبده ما أوحى ما كذب الفؤاد ما**

رأى . . . أفتمارونه على ما يرى ولقد رآه نزلة أخرى عند سدرة المنتهى عندها جنة المأوى إذ يغشى السدرة ما يغشى ما زاغ البصر وما طغى ، لقد رأى من آيات ربه الكبرى » .(النجم ٣ - ١٨).

صدق الله العظيم . . لقد رأى المصطفى من آيات ربه الكبرى وامتد بصره وبصيرته على مدى الأزمنة فرأى آدم والأنبياء من بعده في الماضي السحيق وانتقلت عين بصيرته لترى أحوال الدنيا كلها وأحداثها إلى قيام الساعة ثم رأى الجنة والنار وما بينهما وانكشفت له الحجب وانزاحت أمام عينيه السجف . . ما زاغ البصر وما طغى . . هكذا يقول الحق تعالى عن نبيّه . . أفنستغرب بعد هذا أن نجد ما قاله المصطفى في العدوى وغيرها مطابقاً لعين الحقيقة التي لم يكشف إلا عن بعضها في القرن العشرين !!

لا يشك في ذلك ولا يرتاب إلا من طمست بصيرته وعميت سريرته وإلا فكيف لا ينجلي لرسول الله ﷺ أمر هين كالعدوى وقد انجلت له العوالم العلوية والسفلية . . وأوغلت بصيرته رؤ ية في الماضي السحيق كما أوغلت تنظر في المستقبل البعيد . .

فأمر العدوى إذن هيّن بالنسبة لأمر النبوة . . فمن

انكشفت له العوالم . . ونظر في الماضي السحيق والمستقبل البعيد كما ينظر أحدنا في حاضره بل أتم وأكمل . . من انكشفت له هذه الأسرار لا يستغرب منه أن يحدثنا في العدوى والطاعون وكثير من فروع الطب والمعرفة بما لا يزداد على الأيام والأزمان إلا صدقاً ووضوحاً وجلاء . .

وهذا البحث دليل على ذلك إن شاء الله . . وسيجد فيه القارىء بإذن الله ما يزيل عنه اللبس إن كان ممن التبس عليه الأمر . . وما يزيده يقيناً وإيماناً إن كان من أهل الإيمان واليقين . .

والله أسأل أن يهدينا جميعاً إلى سواء السبيل .



الفصل الأول

العدوى بين الطب وحديث المصطفى (ﷺ)

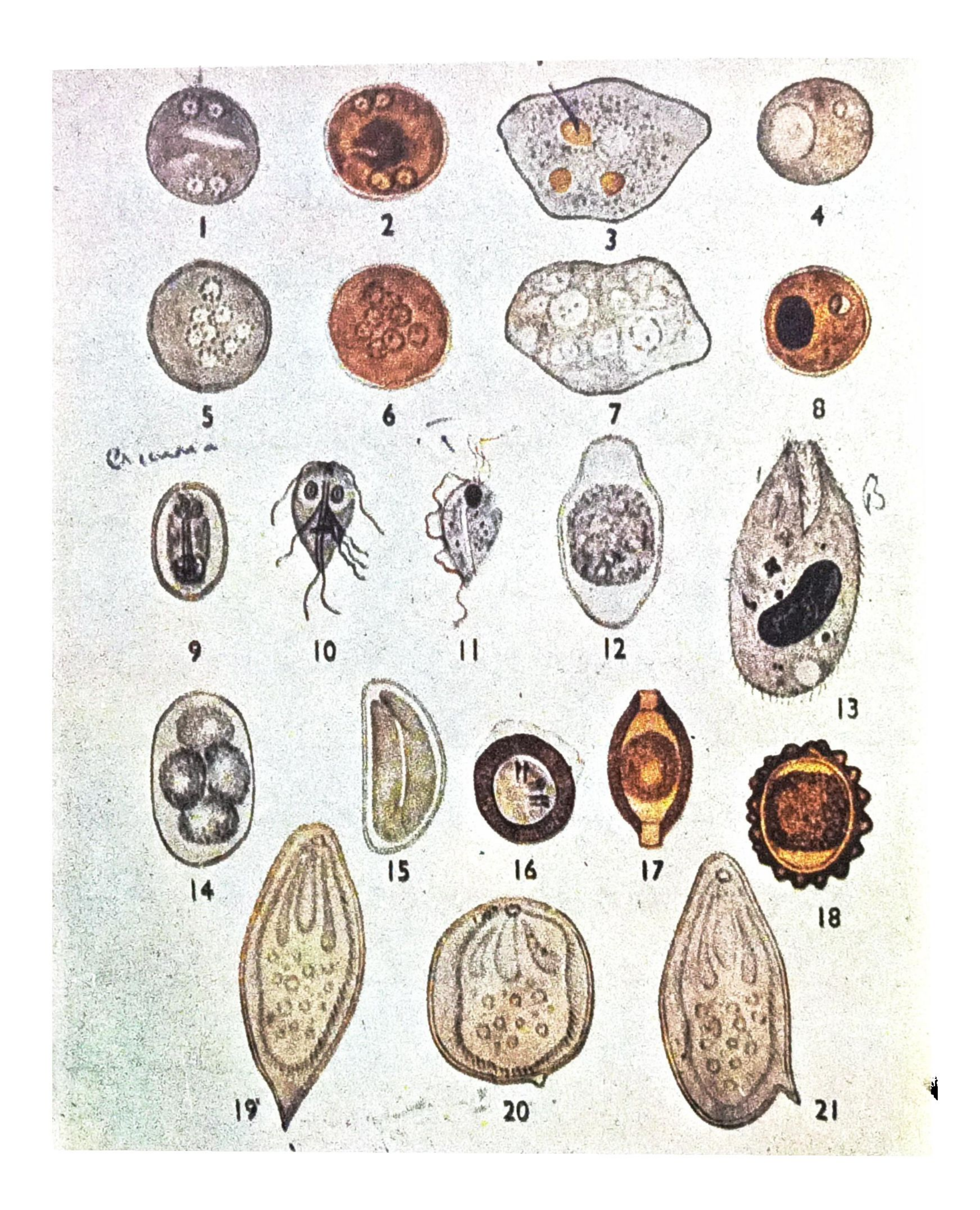
« لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صفر . وفر من المجذوم كما تفر من الأسد » .

(حديث رقم ٥٧٠٧ كتاب الطب) أخرجه البخاري

تنقسم الأمراض التي تصيب الانسان الى قسمين كبيرين : أمراض غير معدية وأمراض معدية . أما الامراض غير المعدية فهي أمراض كثيرة تصيب الجسم الانساني دون أن تكون هناك عدوى انتقلت من شخص الى آخر . وهذه ربما تكون وراثية مثل بعض امراض الدم كالهيموفيليا او غذائية نتيجة نقص البروتينات او الفيتامينات مثل مرض البربري الناتج عن نقص فيتامين ب . أو هورمونية نتيجة زيادة نشاط احدى الغدد الصماء أو قلة افرازها مثل أمراض الغدة الدرقية

او الغدة النخامية أو الغدة الكظرية أو غيرها من الغدد بزيادة أو نقصان في الوظيفة وما ينتج عنه من خلل شديد يؤدي الى الوفاة أو المرض الشديد حسب نوع الاصابة ودرجة شدتها وحسب الغدة المصابة . . أو لأسباب خلقية تصيب الجنين وهو لا يزال في رحم أمه فيخرج الى الدنيا مشوها أو مصابا في أحد أجهزة جسمه . . . أو أمراض سرطانية أو أورام حميدة . . أو لأسباب مجتمعة أو أسباب مجهولة في حقيقتها معلومة في ظواهرها كمرض البول السكري وضغط الدم وجلطات القلب .

وأما الامراض المعدية فهي التي تنتقل من مريض الى آخر بأحد طرق العدوى العديدة وهي إما بواسطة التنفس كما في امراض الجهاز التنفسي كالانفلوينزا والسل الرئوي أو بطريق الفم مثل أمراض الجهاز الهضمي كالدوسنتاريا (الزحار) الاميبي والباسيلي والتيفود والكوليرا وشلل الأطفال والتهاب الكبد الوبائي أو عن طريق الزنا أو اللواط مثل الامراض التناسلية كالزهري والسيلان أو عن طريق الملامسة مثل الجدري أو الجذام أو بواسطة الحقن أو نقل الدم مثل التهاب الكبد الفيروسي أو بواسطة وخز الحشرات كالبعوضة التي تنقل مرض الملاريا وداء الفيل والحمى الصفراء أو ذبابة التسي تسي



صورة مكبرة مئات المرات (فقط) لمجموعة من الطفيليات التي يعيش معظمها في الجهاز الهضمي للإنسان : وتشمل وحيدات الخلية مثل الاميبا (١ الى ٨) والجيارديا (٩ ـ ١٠) كما تشمل مجموعة من بيض الديدان متعددة الخلايا مثل الانكلستوما (١٤) والديدان الشريطية (١٦) والاسكارس (ثعبان البطن) رقم ١٨ والبلهارسيا (١٩ إلى ٢١) .

التي تنقل مرض النوم أو القمل الذي ينقل حمى التيفوس أو البرغوث الذي ينقل الطاعون .

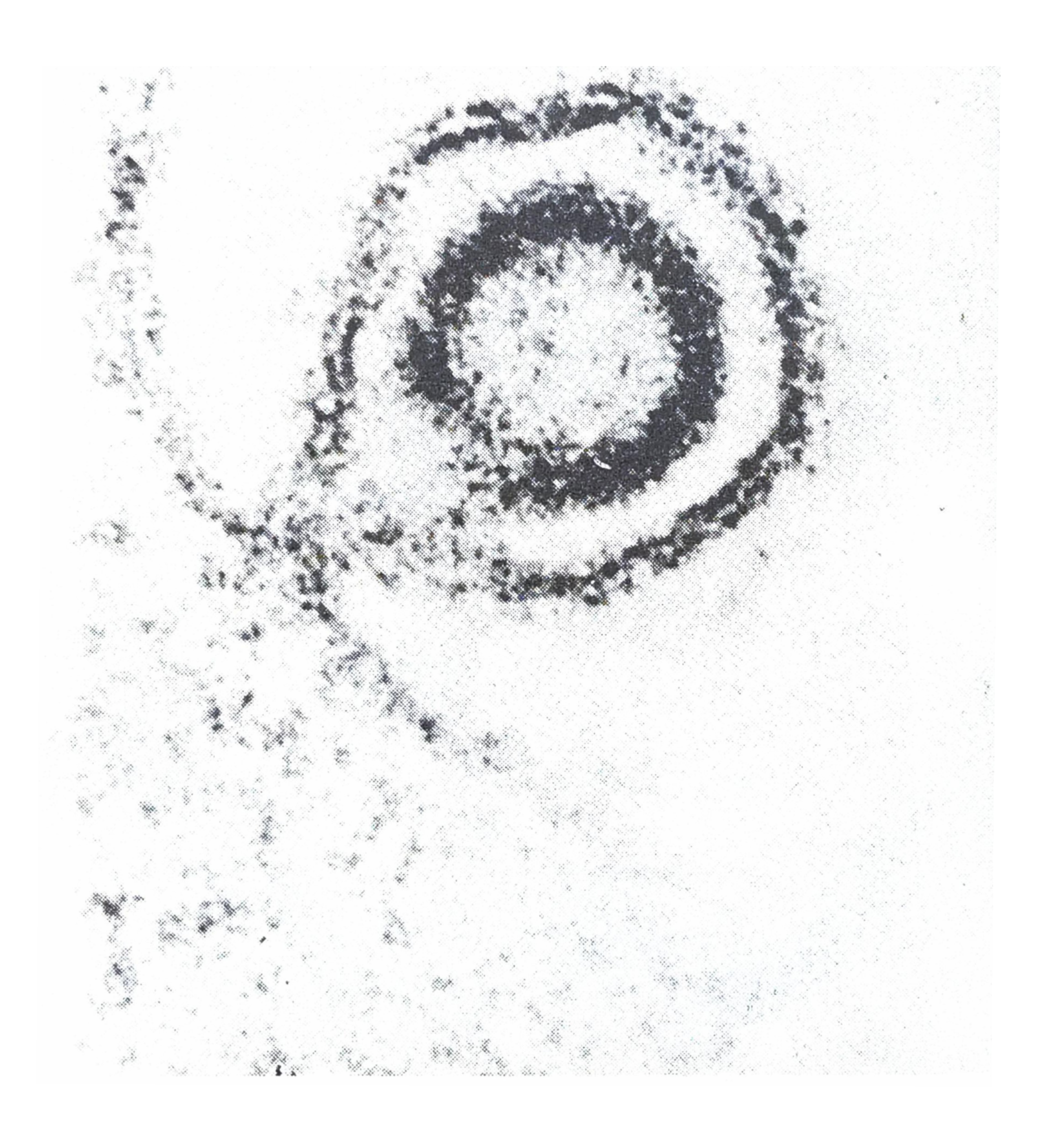
والأمراض المعدية كما ترى لها طرق عديدة لانتقال العدوى من مريض الى آخر ولها أسباب عديدة . . ودرجات في شدة العدوى ودرجات في المناعة والمقاومة لدى المصابين بها .

واهم اسباب الامراض المعدية هي مخلوقات متناهية في الصغر والدقة بحيث لا تراها العين المجردة وانما نحتاج لكي تراها أن تكبّر صورتها مئات المرات وآلاف المرات ومئات الآلاف من المرات فالاميبا وهي مخلوق وحيد الخلية نحتاج لتكبيرها مئات المرات والبكتريا الدقيقة لا بد من تكبيرها لآلاف المرات لكي ترى بوضوح أما الفيروسات فقد نحتاج الى تكبيرها مئات الالوف من المرات حتى ترى بوضوح وجلاء .

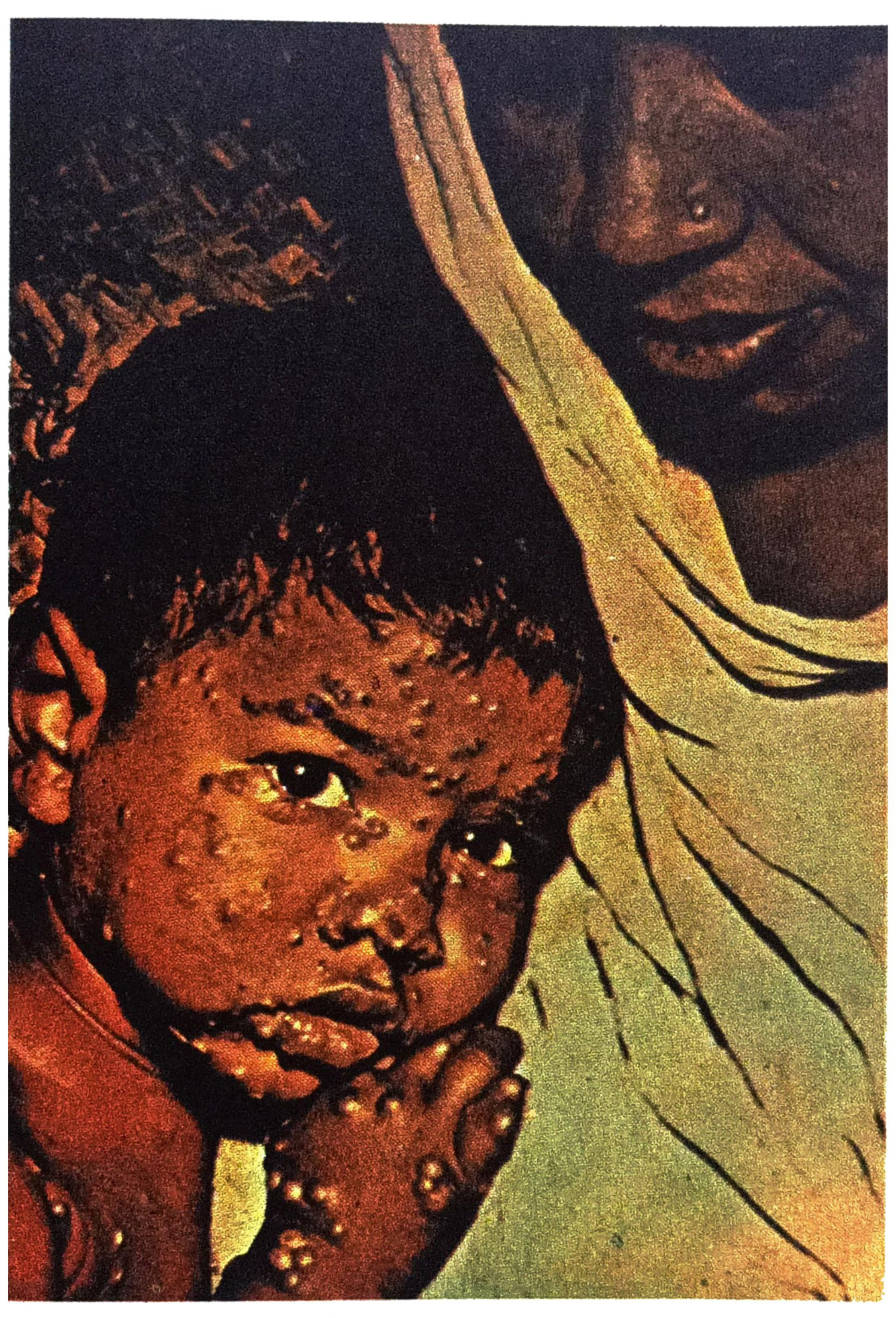
ولنبدأ بنبذة مختصرة عن الفيروسات . .

الفيروسات :

الفيروسات كائنات دقيقة جدا ترى بالمجهر الاليكتروني بعد تكبيرها عشرات الآلاف أو مئات الالوف من المرات . . وقد احتار العلماء فيها حيرة شديدة . . فهم لا يدرون أيضعونها في مملكة الحيوانات او مملكة النباتات بل إنهم لا يدرون ايضعونها في قائمة الاحياء أم في قائمة الجمادات . . .



صورة فريدة بالميكرسكوب الاليكتروني لفيروس مكبر ٣٦٠,٠٠٠ مرة ويظهر تبرعم الفيروس من جدار الخلية وهو يوشك أن ينفجر . . كما يظهر بوضوح الغلاف الخارجي للفيروس وهو متصل بجدار الخلية .

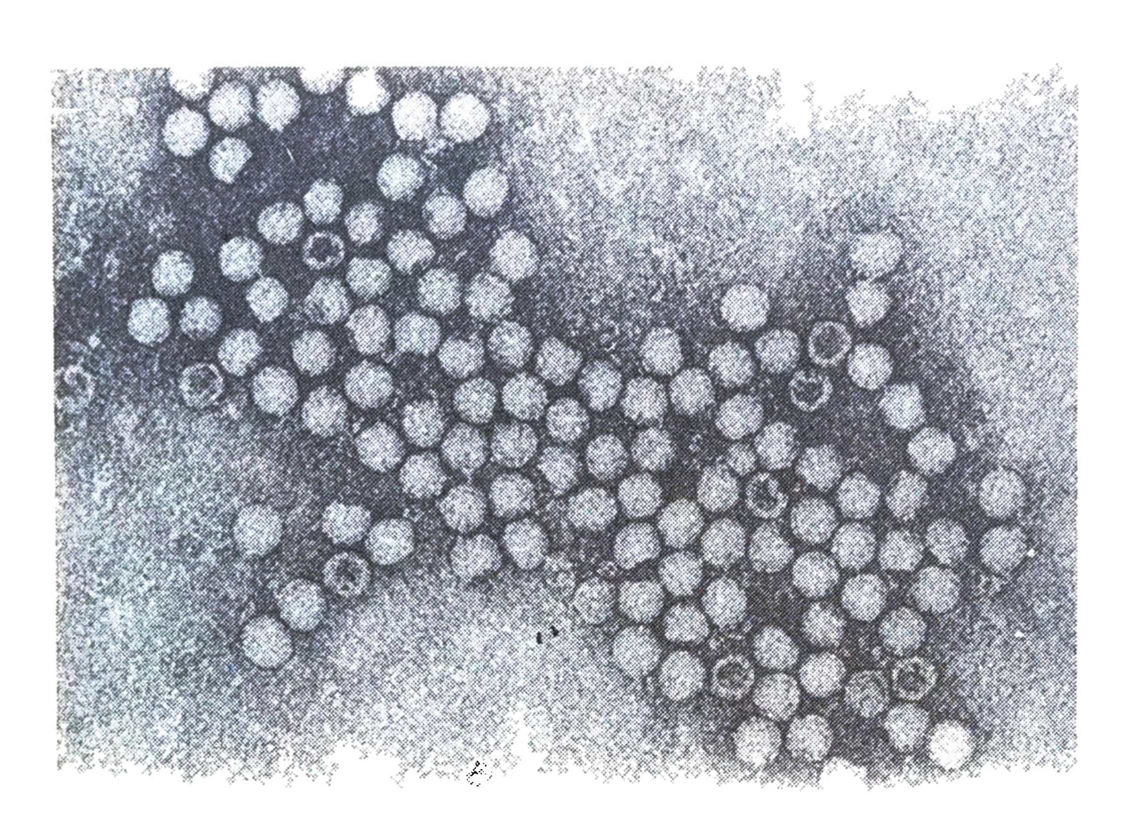


صورة لطفل مصاب بمرض الجدري . لقد تمكنت البشرية بمشيئة الله أن تقضي عليه وذلك باستخدام التلقيح على نطاق واسع جدا .

وأعلنت هيئة الصحة العالمية أنه لم تسجل أي حالة عدوى منذ عام ١٩٧٩ وقد أصبح احتمال الاصابة بالمرض بواسطة التلقيح أكبر من احتمال الإصابة به بدون تلقيح ولذا أهمل تلقيح الجدري في العامين الماضيين .



صورة لفيروس الجدري وقد كبرت الصورة ٦٣,٥٠٠ مرة وفيروس الجدري مكون من الحامض النووي D.N.A وقد كان هذا الميكروب يصيب شخصا فيميته ويصيب آخر فتبدو عليه أعراض مرض خفيف وكأنه نزلة برد . . ويصيب ثالثا فلا يبدو عليه أي مرض . وذلك بقدر الله وقدرته إن شاء جعل سبب الداء دواء وإن شاء جعل الدواء داء .



صورة مكبرة١١٠,٠٠٠ مرة لفيروس شلل الاطفال . يدخل الميكروب بواسطة الفم في الغالب الاعم وتتعرف عليه أجهزة المناعة (الغدد اللمفاوية) في أمعاء الطفل فتصنع مواد مضادة فيكون بذلك نعمة على ذلك الطفل . . ويدخل الى طفل آخر فيصيبه بالشلل في احد اطرافه أو في جهازه التنفسي فيصاب بالاختناق ويموت إن لم يتدارك بالعلاج . . وهكذا يتحول الداء الى دواء بقدر الله وقدرته

ويقول كتاب :

PRINCIPLES AND PRACTICE OF INFECTIOUS DISESEASES BY MANDELL, DOUGLAS AND BENNETT 1979.

« إن واحداً في الالف فقط من الاطفال الذين يصابون بفيروس شلل الاطفال يصابون بالشلل . . وأن ما بين ٩٠٠ الى ٩٥٠ من كل الف لا يظهر عليهم أي مرض أو أي أعراض على الاطلاق رغم ان الفيروس موجود في أجسامهم وبالذات في أمعائهم ويفرز في برازهم

وكذلك قد يوجد في افواههم ولوزهم ويفرز كذلك بهذه الطريق . . دون أن يسبب لهم أي أذى . . وأن ما بين ٤٠ الى ٨٠ من كل الف تظهر عليهم بوادر مرض خفيف اشبه شيء بالزكام. وأن ما بين عشرة الى عشرين من كل الف يصابون بمرض شديد ولكن واحدا في الاف فقط هو الذي يصاب بالشلل» . . ولا احد قطعا يعلم من هو هذا السيء الحظ الذي سيظهر عليه شلل الاطفال . .

والغريب حقا في هذا الفيروس أنه كلما كانت الاصابة به في سن الطفولة المبكرة كانت الحالات المرضية ضئيلة جدا وإذا كانت الاصابة في سن الصبا والشباب والقوة والصرامة كانت الحالات المرضية كبيرة نسبيا . .

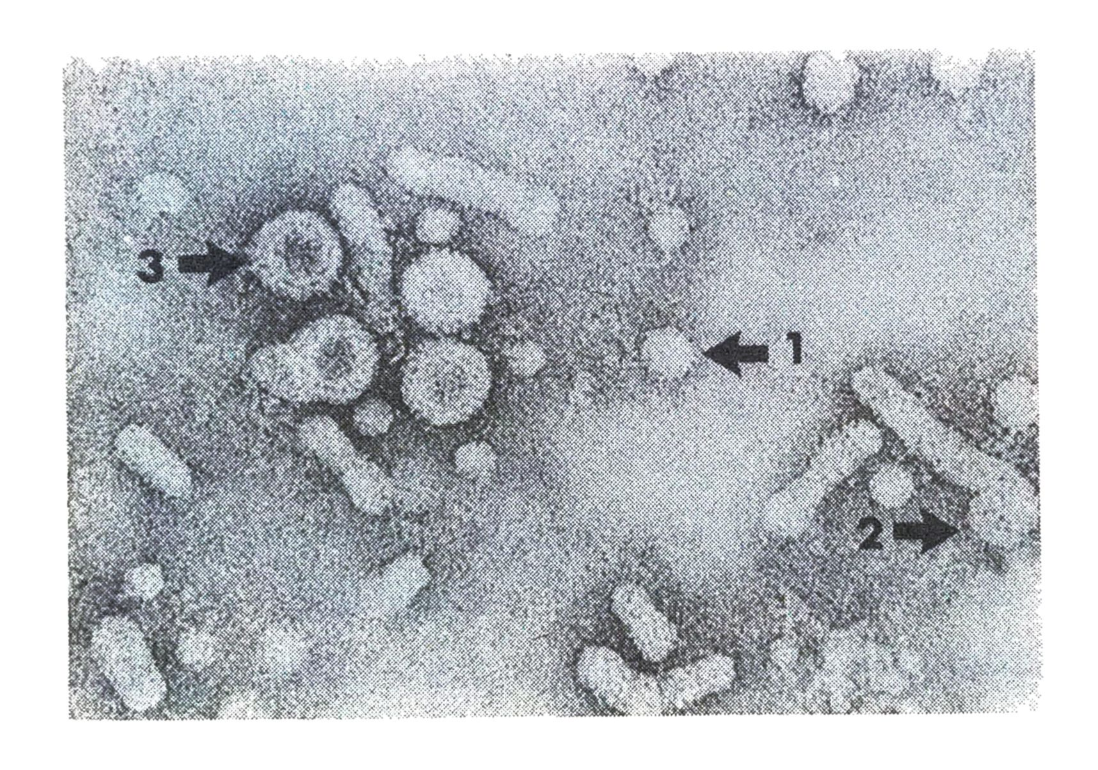
وكذلك من غرائب هذا الفيروس انه كلما كان مستوى النظافة أعلى وأرقى كلما كانت الاصابات أشد وأعتى . .

وقد كانت الاصابات بشلل الاطفال في البلاد الاوربية والامريكية (قبل اكتشاف التطعيم ضد شلل الاطفال) اكبر وأعلى منها في البلاد المتخلفة والنامية . . وتغير الوضع بعد أن قام سالك بتحضير فيروس شلل الاطفال ميتا وإعطاءه على هيئة حقن لتطعيم الاطفال وذلك عام ١٩٥٥ ثم قام سابين وغيره بتحضير طعم من الفيروسات المضعفة على هيئة نقط تؤخذ بالفم وذلك عام ١٩٦٢ ووجد ان هذه الطريقة الأخيرة افضل من الاولى في تكوين المناعة .

ومما سبق يتبين أن الاصابة بفيروس شلل الاطفال لا تعني مرض شلل الاطفال في ٩٩,٩ بالمئة من الحالات وأن من يصاب بشلل الاطفال لا يزيد عن واحد بالألف فقط . . وصدق رسول الله ﷺ حيث يقول « لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صفر وفر من المجذوم فرارك من الأسد » فلا عدوى بذاتها . .

وقد يجعل الله ما هو سبب للداء سبباً للشفاء فدخول فيروس

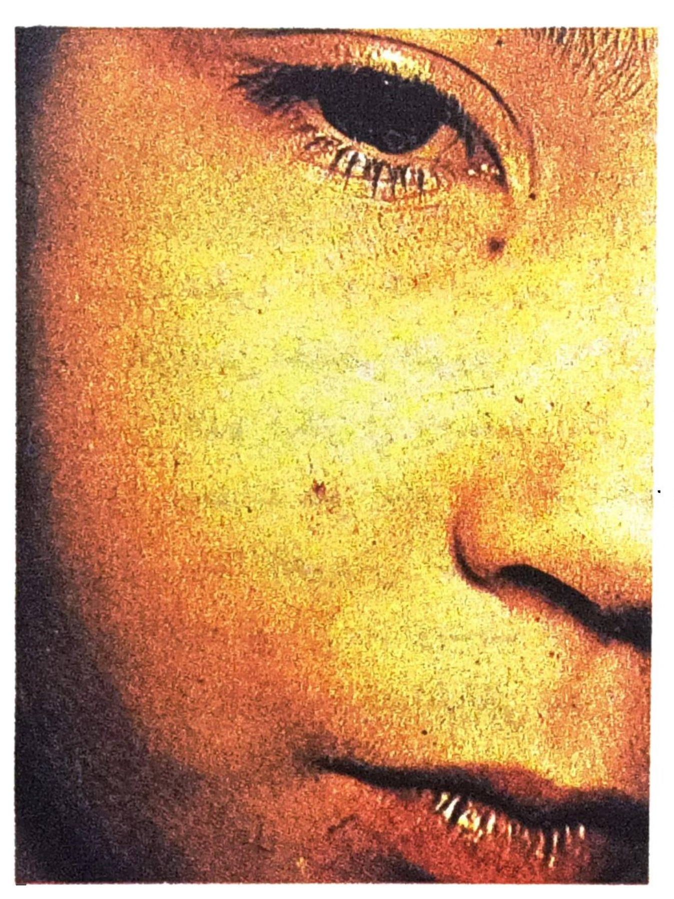
شلل الاطفال في سن مبكرة يعطي مناعة ضد الميكروب في مستقبل الايام .. وهذه هي فكرة التطعيم .. ورغم ذلك فإن هناك حالات وإن كانت نادرة تصاب بالشلل نتيجة التطعيم .. فيكون ما هو سبب للدواء في حقها سبب للداء .. وهكذا يجعل الله الداء دواء والدواء داء إذا شاء فلا راد لحكمه ولا مانع لقضائه والأمر كله منه واليه .



صورة مكبرة ١٨٤,٠٠٠ مرة لفيروس التهاب الكبد الفيروسي الوبائي «A» وهو من فصيلة الـ R.N.A الذي تمكن العلماء أخيراً من مشاهدته وتصويره .. يسبب هذا الفيروس التهاب الكبد الفيروسي الوبائي .. وتظهر على المريض صفرة شديدة (يرقان) .. وحمى خفيفة وقيء وغثيان .. ورغم أن هذا المرض معدي ، الا أن الفحوصات الطبية المخبرية تدل على أن أكثر من تسعين بالمئة من السكان في البلاد النامية وما بين عشرين الى سبعين بالمئة في اوربا

وامريكا قد أصيبوا بهذا الفيروس دون أن يشعروا[1] .. وتمكنت أجهزة المناعة التي خلقها الله لهم من حد كيد هذا المعتدي..

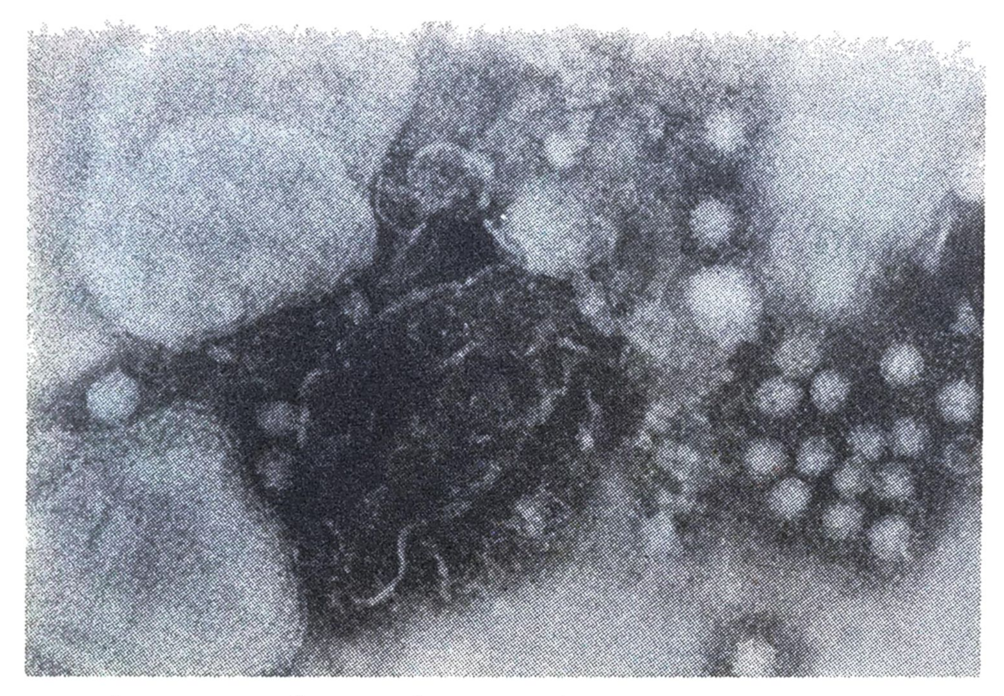
ينتقل هذا الفيروس عن طريق الفم ويفرز في افرازات الجسم وخاصة البول والبراز وتنتقل العدوى بانتقال الفيروس الى مياه الشرب أو الطعام وكلما ارتفع مستوى النظافة وتحسن نظام المجاري كلما قلت العدوى بهذا الفيروس وغيره من انواع الامراض المعدية التي تنتقل عن طريق الفم.



صورة لمريض مصاب بالتهاب الكبد الفيروسي الوبائي والصورة توضح اصفرار جسمه وملتحمة عينه.

---

(١) انظر مجلة هيكساجون
وكتاب « أسس ومعالجة الأمراض المعدية ».
Hexagon 8, No 3, 18-24 (1980)
PRINCIPALES AND PRACTICE OF INFECTIOUS DISEASES BY MANDELL, DOUGLAS . BENNETT 1979



صورة مكبرة ٢٢,٧٠٠ لفيروس التهاب الكبد « غير الوبائي » B وهو مكون من الحامض النووي D.N.Aينتقل هذا الفيروس أساسا عن طريق الدم فيكثر في وحدات الكلى الصناعية وفي المختبرات الطبية وفي وحدات نقل الدم . . وأخيرا ظهر لدى المصابين بالشذوذ الجنسي . . هذا الفيروس أشد خطورة من سابقه ونظيره المسبب لالتهاب الكبد الوبائي . . ويسبب الوفاة لدى نسبة ممن يصابون به بينما ميكروب التهاب الكبد الوبائي نادرا ما يسبب الوفاة . وتتحول نسبة الى تليف الكبد المزمن والى سرطان الكبد بينما التهاب الكبد الوبائي محمود العاقبة في ٩٠ الى ٩٥ بالمئة من الحالات التي تصاب بالمرض . . ومع هذا فإن هناك من يحملون في دمائـهم هذا الميكروب الخطير دون أن يصابوا بأي أذى . . وإذا تبرعوا بدمهم أو أجريت لهم فحوص طبية مخبرية فإن دماءهم يمكن ان تعدي غيرهم وتصيبهم بمرض مميت . . وهكذا يكون الميكروب الخطير وبالا على شخص ما ونعمة على آخر بقدر الله تعالى وقدرته فهو الذي إن شاء جعل الداء

الوبيل دواء . . وجعل الدواء الناجع داء . . وذلك تصديق لحديث المصطفى صلوات الله عليه « لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صفر . . وفر من المجذوم فرارك من الأسد » ليعلم الانسان ان لا عدوى بذاتها وانما هي أسباب يجريها الله تعالى إن شاء اجرى اسبابها وإن شاء منع تلك الاسباب وعارضها باسباب أخر . . ومع ذلك فالانسان مأمور بالأخذ بالاسباب « وفر من المجذوم فرارك من الاسد » . . «ولا يورد ممرض على مصح » .

مجموعة من الصور توضح طفيليات الدم .
المجموعة من ١ـ ١٥ توضح انواع طفيلي الملاريا

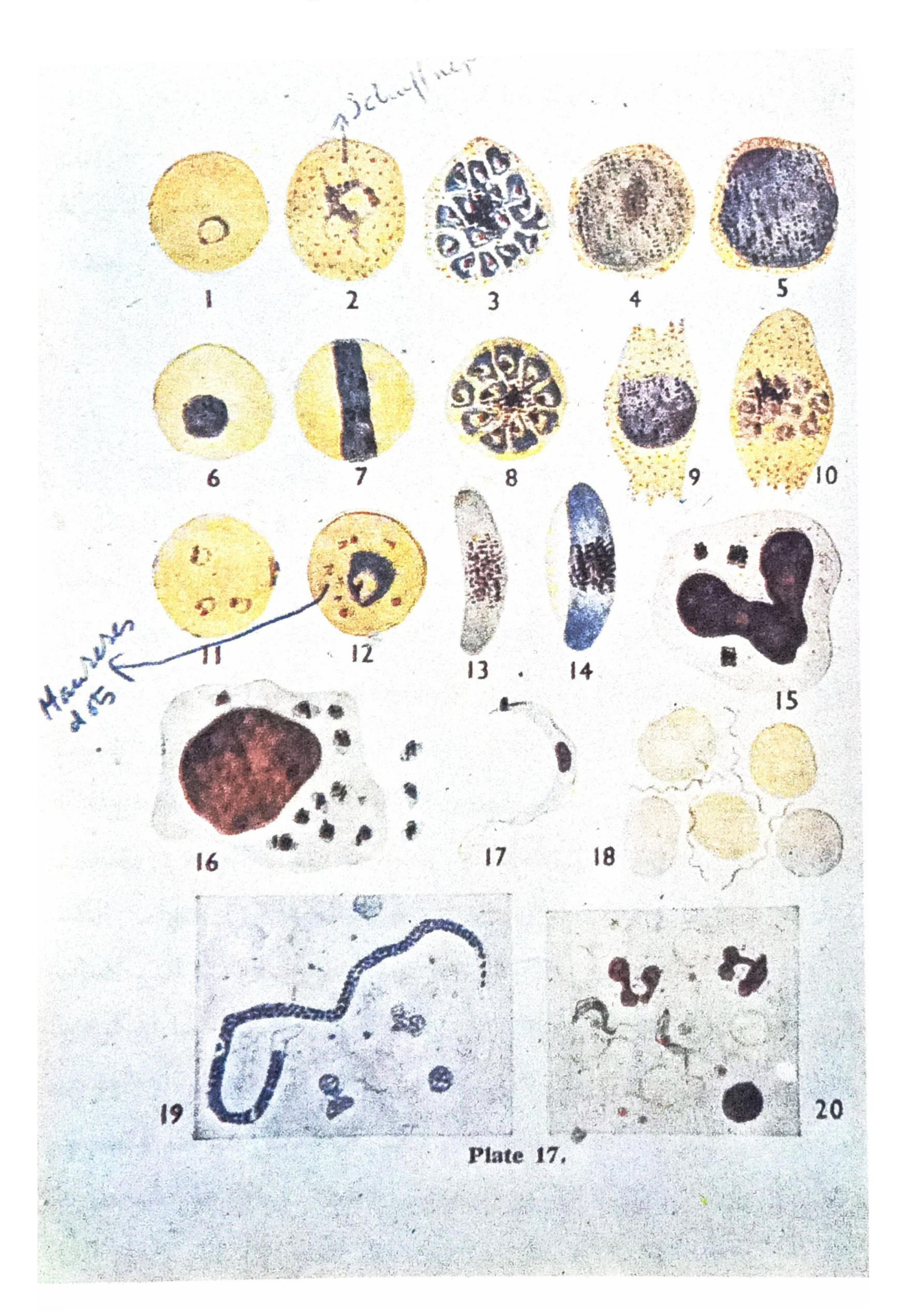


Plate 17.

(البلازموديوم) وهو وحيد خلية يعيش فترة من حياته في دم الانسان وكبده ويتكاثر هناك فإذا أراد الله له التزاوج جاءت انثى نوع من البعوض (الانوفيليس) فامتصت الدم من الانسان لغذائها ومع هذا الدم تأخذ طفيلي الملاريا فيلتقي ذكر هذا الطفيلي بانثاه في جدار معدة البعوضة مكونا الزيجوت (النطفة الامشاج) .. وما يلبث هذا الزيجوت الا فترة يسيرة يتحوصل فيها ثم ينقسم الى العديد من الكائنات الدقيقة (الاسبوروزويت أي الحيوانات الدقيقة البوغية أو البزرية) .. وتنساب هذه الكائنات الدقيقة الى الغدة اللعابية للبعوضة .. وعندما تقوم البعوضة بقرص إنسان وامتصاص دمه تقوم هذه الكائنات الدقيقة المخاتلة بالانسياب في لعاب البعوضة وتدخل من مكمن اللدغة والقرصة . ثم تدخل في عروق الدم وتجري في مجراه وتذهب الى كبد الانسان وتسكن في خلاياه .. وهناك تنمو ويخرج منها طور جديد يهاجم كرات الدم الحمراء في دم الانسان .. وتحت المجهر نرى كرات الدم الحمراء وقد استعمرتها هذه الطفيليات الدقيقة ويكون شكلها عندئذ مثل الحلقة أو الخاتم وتدعى عندئذ بمرحلة الخاتم أو الحلقة RING STAGE ثم تنمو بعد ذلك لتشبه الاميبا لأن لها عدة أرجل كاذبة .. ثم تنفلق وتنقسم الى مجموعة دقيقة جدا تدعى المنشطرة او المنقسمة او المفلوقة SCHIZONT ويتحول بعضها الى طفيلي مذكر وطفيلي مؤنث (أي خلية تناسلية أولية مذكرة ومؤنثة GAMETOCYTE) ولا تكمل نموها ودورتها وتزاوجها الا في جسم البعوضة - من نوع الانوفيليس .. ولا ترضى به بديلا .

وتعيد بقية الكائنات الدقيقة (SCHIZONTS) المفلوقة الهجوم على كرات الدم الحمراء وتعيد الدورة مرة اخرى ..

والصورة رقم ١٦ هي لطفيليات من وحيدة الخلية تسمى

لشيمانيا وهي كائنات دقيقة ذات اسواط تعيش في دم الانسان وكبده وطحاله . . ومنها نوع جلدي ويسبب القرحة الشرقية او قرحة حلب أو قرحة بغداد أو قرحة دلهي (وكلها أسماء توضح أماكن انتشارها) .

والصور رقم ١٧ و ١٩ و ٢٠ توضح نوعا من الطفيليات البدائية المسماة ترابنسوما (المثقبيات) وهي انواع عديدة فمنها ما يسبب مرض النوم الذي تنقله ذبابة التسي التسي والذي يتوطن في جامبيا وغانا (في افريقيا) (صورة ١٩و٢٠) ومنها مايسبب مرضا خطيرا يدعى مرض شاجاس CHAGAS DISEASE وهو منتشر في امريكا الجنوبية ويصيب القلب والمري والامعاء . . وما نراه في الصورة رقم ١٧ هو من هذا النوع وتدعى ترابنسوما كروزي (مثقبية كروزي) .

والصورة ١٨ هي لبكتريا من نوع اللولبيات وهي ايضا انواع كثيرة فمنها ما يسبب الزهري ومنها ما يسبب نوعا من اليرقان ومنها وهو ما نراه في الصورة ما يسبب الحمى الراجعة .

والصورة رقم ١٩ توضح طفيلي الفلاريا من نوع لوا لوا الذي ينتقل بواسطة نوع من الذباب يدعى كرايسوبس CHRYSOPS الذي يقرص الانسان المريض فيأخذ يرقة الفلاريا ومنها ينتقل مرة اخرى الى الشخص السليم حيث تنمو هذه اليرقات MICROFILAVIA في الانسجة الضامة CONNECTIVE TISSUE وخاصة في العين وتسبب نتيجة لذلك العمى . . وقد اشتهرت باسم دودة العين EYE WORM وهي منتشرة في غرب افريقيا في سيراليون ويوغندا وانجولا والكونغو وفي جنوب السودان .

وفي جميع هذه الامراض فإن الميكروب سواء كان فيروسا أو باكتيريا أو طفيلياً من خلية واحدة أو متعدد الخلايا مثل ديدان الفلاريا والبلهارسيا فانها جميعا تشترك في صفة واحدة هي أنها لا تسبب

المرض بذاتها فقط ولا بد من عوامل أخرى تساعدها في ذلك .. فقد تصيب شخصا فتصرعه وتصيب آخر فيصرعها .. وقد تتعايش معه فلا تؤذيه ولا يؤذيها !!



الصورة (١) لذبابة التسي تسي المشهورة والتي تنقل مرض النوم

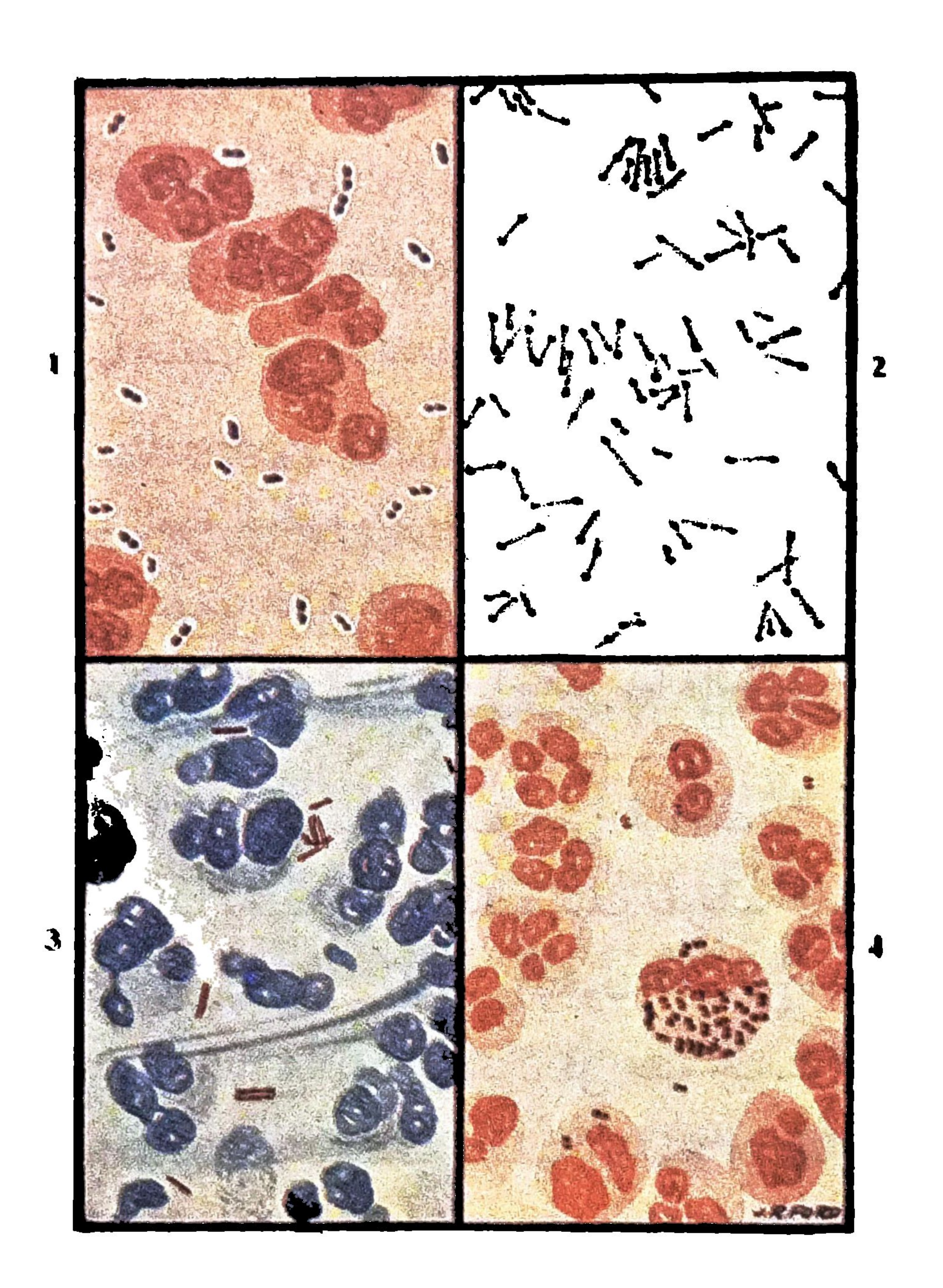


وفي الصورة (ب) أفريقية صرعها مرض النوم الذي تنقله ذبابة ويسببه طفيلي وحيد الخلية من فصيلة ترابنسوما (المثقبيات) .

فهي ـ أي الفيروسات ـ ليست خلية وليست نواة ولا تتغذى ولا تنمو وانما تتكاثر بطريقة عجيبة غريبة تدخل الى الخلايا الحية فتسيطر عليها . . وتتعرف على السر الكامن فيها الذي به تنقسم الخلية فتتحكم فيه . . وتجعل الخلية نفسها تتحول الى فيروس كلما انقسمت الخلية ذاتها انقسمت الى ملايين الملايين من الفيروسات التي تدخل الى خلايا أخرى فتستعمرها وتحولها الى مجموعة جديدة من ملايين الفيروسات . . حتى تتمكن من خلايا الجسم كلها فتهلكها أو تتم لخلايا الجسم قدرة عجيبة جديدة فتصد ذلك الغازي وتقضي عليه . .

والفيروسات تختلف عن جميع الكائنات الحية في كل شيء . . ولا تتفق معها الا في التكاثر وان كانت طريقة تكاثرها فذة تختلف كل الاختلاف عن بقية الكائنات الحية صغيرها وكبيرها حيوانها ونباتها .

وأهم ما تختلف فيها الفيروسات عن الكائنات الحية الاخرى انها مكونة من حامض نووي واحد بينما جميع الكائنات الحية الاخرى بها حامضين نووين . . هما RNA و DNA . . فالفيروس لا يمكن الا ان يكون أحد الحامضين النوويين أما بقية الكائنات فتجمع بينهما .



(١) عصويات الدرن : المسببة للسل وهي ترى هنا بوضوح بين الخلايا الصديدية للبصاق .

(٢) مكورات السيلان : وهو أكثر أمراض الزنا شيوعا في العالم .

(٣) المكورات الثنائية المسببة للالتهاب الرئوي وهي ترى بين الخلايا الصديدية للبصاق .

(٤) عصويات الدفتريا (الخناق) بشكلها المتميز الفريد وكأنها العصى التي تضرب بها الطبول .

واشهر الامراض التي تسببها الفيروسات هي الانفلوينزا والزكام ونزلات البرد . . وهي ليست نوعا واحدا من الفيروسات وانما انواع عديدة . . كلما تكوّن لدى الجسم مناعة لنوع منها خُلقت أنواع جديدة لا عهد للجسم بها من قبل ولا منعة . . ومنها فيروس شلل الأطفال وفيروس النكاف المسبب لالتهاب الغدة النكفية وفيروس الحصبة والجدري والجديري وفيروس التهاب الكبد الوبائي وفيروس الحمى الصفراء . . والعديد من الأمراض والأوبئة الخطير منها واليسير .

وأما البكتريا فمملكة كاملة وهي مخلوقات لا يمكن ان يقال عنها انها وحيدة الخلية ولكنها تملك مقومات الحياة فهي تنمو وتتغذى وتتكاثر . . وتتنفس وتتكون اساسا من الحامضين النوويين RNA و DNAمثلما تتكون كل خلية حية سواء كانت نباتا أم حيوانا . . وتستطيع البكتريا الحياة مستقلة ويمكن زرعها في البيئة المناسبة .

وهي انواع عديدة وتقسم الى مجموعات وفصائل حسب صفاتها وعاداتها وتكوينها وطرق زرعها وخصائصها .

ومنها ما هو نافع للانسان مثل البكتريا التي تحول الحليب (اللبن) الى لبن رائب وذلك بتحويل السكر الموجود في

الحليب الى حامض ومنها البكتريا التي تثبت النتروجين الجوي في التربة فتزيدها غناء فتمتصها النباتات البقولية فتخرج لنا الفول والفاصوليا . . وغيرها من النباتات التي بها مادة البروتين .

ومنها ما يعيش في امعاء الانسان ويساعد بعضها على هضم المواد الغذائية كما يساعد بعضها في تكوين فيتامين ب المركب . . ويتعايش كثير منها مع الانسان فيفيد ويستفيد[١] ويوجد منها البلايين على سطح الجلد . . وهي تعيش على الخلايا الميتة (القشور) التي يطردها الجلد في كل لحظة وآونة . . فتأكل هذه القشور وتدع المجال مفتوحا للخلايا الجديدة الحية لتحل محل هذه القشور الميتة .

وتعيش البلايين من هذه البكتريا في فم الانسان وانفه وعلى سطح جلده وفي امعائه دون ان تحدث له اي ضرر بل أن كثيرا منها ذو نفع وفائدة كما أسلفنا . ولكن العجيب حقا ان هذه البكتريا المفيدة والتي تعيش معنا في وئام وسلام قد تتحول طبيعتها الهادئة المسالمة فجأة وبدون سابق انذار الى طبيعة

(١) فوجودها يمنع كثيرا من الميكروبات الضارة من النمو فإذا استخدمنا المضادات الحيوية مثلا بدون ضرورة ملزمة فإن هذه المضادات تقتل كثيرا من الميكروبات النافعة ويختل التوازن فتنمو الميكروبات الضارة وهكذا يتحول الدواء وهو المضاد الحيوي الى داء .

عدوانية وحشية ماكرة فتهجم علينا وتستغل ضعفنا فتجعلنا فريسة لها بين عشية وضحاها .

ومن البكتريا ما مُرِّدَ على العدوان والهجوم وهي البكتريا المسببة لكثير من الأمراض والأوبئة مثل الطاعون والكوليرا والتيفود والتيفوس والسل والجذام . . والدفتريا والالتهاب الرئوي والتهاب اللوزتين . . الى آخر القائمة الطويلة جدا من الأمراض والاسقام والأوبئة التي تسببها البكتريا .

ولكن العجيب والغريب حقا ان نجد تلك البكتريا التي مردت على البطش والعدوان قد استحالت طبيعتها عند بعض الناس الى حمل وديع لا يسبب ضررا ولا يهيج ساكنا . . فلا تهاجم ولا تقاتل وإنما تقبع في مكانها هادئة هامدة تأكل مما يفيض عليها في وئام وسلام . . بل أكثر من هذا . . انها تقوم احيانا بتغيير طبيعتها تغييرا شاملا كاملا (وهي نفسها لا تدري عن هذا التغيير شيئا) تتحول من الاساءة الى الاحسان . . ومن الضر الى النفع . . ومن الهجوم على جسم الانسان الى الدفاع عنه . . ومن خذلانه الى نصرته . . كل هذا على غير سابق عهد منها ولا ردا لجميل قدمه لها الجسم الانساني ولا توقعا منها لمثل هذا الجميل فيما تأتي به الايام .

وليست هناك قاعدة معروفة نستطيع ان نتنبأ بها عن طبيعة

هذا الميكروب (الكائن الدقيق) المخاتل المخادع وأنه سيتحول فجأة من السلام والوئام الى الهجوم والعدوان . . أو سيتحول من الهجوم والعدوان الى المسالمة والموادعة . . فليس الأمر بأيدينا وليس الأمر كذلك بيد تلك الميكروبات الدقيقة فهي لا تعلم من أمرها شيئاً . . ولكن الأمر لمن بيده الأمر كله يصرفها كيف يشاء . . وأما معلوماتنا فهي تعتمد على التجارب وعلى الأغلب الارجح . . وليس لدينا من علم يقيني بأن هذا الميكروب سيسبب المرض الفلاني . . أو أنه سيسبب المنعة والمناعة . . ولا نعرف سلفا ان هذا الميكروب سيكون ضارا عند هذا الشخص الا على سبيل الترجيح والتغليب فليس في العلم التجريبي بفروعه كلها شيء يفيد اليقين . . وانما هو علم مبني على غلبة الظن والترجيح .

ولنضرب بعض الامثال حتى تتضح الحقائق . . من المعروف ان بكتريا الحمى الشوكية شديدة العدوان كاسحة الهجوم . . سريعة الانتقال من شخص الى آخر بطريق الرذاذ فتدخل الانف والفم والبلعوم وتمكث قليلا لتتكاثر ثم تغزو الدم وتغزو السحايا (الأغشية) المحيطة بالنخاع الشوكي والمخ فتهجم هجومها الشديد الذي يؤدي الى الوفاة في كثير من الاحيان . .

ولكن هذه البكتريا ذات الطبيعة العدوانية تتغير طبيعتها فجأة عند بعض الاشخاص . . فتبقى هادئة مسالمة . . ولكنها حين تنتقل من ذلك الشخص الى آخر تعود الى سابق عهدها من العتو والعدوان بل انها قد تبقى في فم ذلك الشخص أمدا طويلا دون أن تحرك ساكنا ولكنها فجأة تنقلب من السلام والوئام الى الهجوم والعدوان . .

بل أكثر من ذلك فقد وجد في زمن انتشار هذا الوباء ان تسعين في المائة من السكان يحملون الميكروب وهم اصحاء وان المصابين بالمرض لا يتعدون ٥ في المائة . . ففي الوقت الذي يوجد فيه الف مريض بالحمى الشوكية مثلا فان هناك ما لا يقل عن مائة الف يحملون ميكروب الحمى الشوكية دون ان يبدو عليهم اي تأثير لوجود الميكروب في أفواههم وحلوقهم (المرجع الطبي سيسل لوب طبعة ٧١) .

ولذا فنحن لا نستطيع ان نقول ان كل من يصاب بميكروب الحمى الشوكية سيصاب بالحمى الشوكية فعلا رغم اننا نستطيع العثور على ميكروب المرض المذكور في فم المريض وحلقه وليس انتقال الميكروب من شخص الى آخر هو السبب الوحيد في حصول المرض المعدي ولكن هناك عوامل كثيرة واسبابا عدة من بينها هذا الميكروب . . والا فلماذا يحمل مئات

الآلاف ميكروب الحمى الشوكية ولا يصاب بالحمى الشوكية الا بضع مئات أو بضعة آلاف على اسوأ التقدير . .

قد يتبادر الى الذهن ان هناك اختلافا في الميكروب ذاته ولكن الفحص الدقيق يثبت أن الميكروب واحد وأنه اذا انتقل الى شخص آخر فانه قد يفتك به . . فما هو السر يا ترى في هذه الخاصية العجيبة الموجودة لدى بعض الاشخاص . . فيحملون الميكروب دون أن تتأثر اجسامهم فاذا انتقل الميكروب ذاته الى شخص آخر فعل به الأفاعيل ؟؟ .

ربما يرجع ذلك الى اختلاف المقدرة على مقاومة الميكروب لدى الاشخاص . . ولكن المقدرة على المقاومة نفسها مبنية على أسباب مجهولة . . وليست مبنية على ما يبدو لنا من قوة هذا الشخص وضعف ذاك فقد تصرع الشخص القوي الشديد الذي يبدو في أتم صحة . . وتبقى كامنة هادئة مسالمة لذاك الضعيف الهزيل . . بل انها قد تكون مسالمة موادعة لفترة ما ثم تغير طبيعتها فتهجم وتكون عليه وبالا .

وليست ميكروبات الحمى الشوكية هي الوحيدة بين الميكروبات التي لها هذه الطبيعة المزدوجة : تكون وبالا ودمارا على شخص ما وتكون سلاما ووئاما على شخص آخر . . ولكن الميكروبات جميعها تحمل هذه الصفة . . فهي وبال على

شخص ما هو المريض . . وسلام على آخر وهو حامل المرض أو حامل الميكروب . . فالتيفوئيد من الأمراض المعدية ومع ذلك فهناك المريض الذي تصرعه هذه البكتريا . . وهناك الحامل للبكتريا في جسمه (ومرارته على وجه الخصوص) دون أن تؤثر فيه . .

بل الامر ابعد من ذلك واخطر . . يصيب الفيروس أو البكتريا شخصاً ما فيصرعه ويصاب آخر فيحمل الميكروب دون ان تبدو عليه اي أعراض . . اما الثالث فيصاب بالميكروب فيسبب له مناعة ومنعة لمقاومة الميكروب فيما تأتي به الأيام . . ومن ذلك فيروس شلل الأطفال . . فهو يدخل الى الطفل بواسطة الاطعمة الملوثة فيذهب الى الامعاء وهناك تتلقفه الغدد اللمفاوية فتهجم عليه وتتعرف عليه معرفة دقيقة وتسجل ذلك في مجموعة من خلايا الغدد اللمفاوية . . ولا يبدو على الطفل اي مرض . . بل وتتكون لديه المناعة وهي هذه المعلومات المختزنة في خلايا الغدد اللمفاوية والمواد التي تستطيع صد هذه الفيروسات اذا اعادت الهجوم ثانية في مستقبل الايام .

وتصيب هذه الفيروسات طفلا آخر فتسبب له مرض شلل الأطفال . . والفيروسات واحدة هي وبال على هذا ونعمة على ذاك .

وقد ضربت الامثلة بالامراض الشديدة العدوى السريعة الانتشار كالحمى الشوكية وحمى التيفود وشلل الاطفال . . ومع هذا فأمر العدوى فيها قائم على امور مجهولة وليست مؤكدة وأما اذا أخذنا انواعا اخرى من الامراض البطيئة العدوى البطيئة الانتشار فإنا سنجد من بينها أمراضا كثيرة شاع بين الناس انها شديدة العدوى وهي ليست كذلك ومن اشهرها الجذام .

والجذام مرض معدي لا شك في ذلك ولكن العدوى مبنية على امور كثيرة منها ما نعلمه ومنها ما نجهله . . فمما نعلمه انه لا بد من المخالطة الطويلة للمجذوم حتى تتم العدوى وربما مضت سنوات طوال من الخلطة دون ان تنتقل العدوى . . ومما لا نعلمه هو لماذا يصاب هذا الشخص المخالط للمجذوم ولا يصاب ذاك الذي هو أكثر خلطة واكثر التصاقا بالمجذوم .

وعلى هذا نستطيع ان نقول بكل ثقة ان الميكروب (الكائن الدقيق مثل الفيروس أو البكتريا أو الفطريات أو الحيوانات ذات الخلية الواحدة مثل الاميبا وطفيلي الملاريا) او الحيوانات متعددة الخلايا مثل الديدان الطفيلية ليست وحدها المسببة للمرض والعدوى وأن هناك أسبابا مجهولة تتحكم في الطبيعة العدوانية لهذا الميكروب فتحولها الى طبيعة مسالمة . . أو تتحكم في الطبيعة المسالمة لذلك الميكروب فتحوله الى معتد

اثيم . . وهناك ايضا من الاسباب المجهولة التي تتحكم في المقاومة الموجودة لدى الانسان فتجعلها قوية عارمة تكتسح كل عدوان أو تجعلها ضعيفة هزيلة تنهزم في كل ميدان .

ولا تقوم المقاومة على ضعف الهيكل والبنيان ولا على قوته وعرامته وضخامته . . وانما تعتمد على مجهولات كثيرة ومعلومات قليلة . . فمن المعلوم ان بعض الامراض مثل البول السكري والسرطانات تضعف المقاومة ضد عدوان الميكروب . . ومنها ان استعمال بعض العقاقير الطبية مثل الكورتيزون كذلك يضعف المقاومة، ومنها أن شرب الخمر يضعف مقاومة الجسم في صد كل عدوان ولكن هناك من المجاهيل ما لا يعلمه الا الله .

هذه الحقائق العلمية توضح لنا بجلاء معنى الاحاديث النبوية الشريفة الواردة في العدوى وتزيل عنها ما قد يبدو لأول وهلة من تعارض . . بل وتبدو الاحاديث النبوية على حقيقتها القدسية تتحدث عن الحقيقة في ابعادها السحيقة بلفظ قريب الى الاذهان والعقول . . وهي متصلة بالأزل .

وأهم الاحاديث الشريفة الواردة في هذا الباب هي قول رسول الله ﷺ : عن أبي هريرة :

(١) « لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صفر وفر من المجذوم كما تفر من الاسد » .

أخرجه البخاري

عن أبي هريرة :

(٢) « لا عدوى ولا صفر ولا هامة » فقال اعرابي : يا رسول الله فما بال الابل تكون في الرمل كأنها الظباء فيجيء البعير الاجرب فيدخل فيها فيجربها كلها . « قال رسول الله ﷺ » « فمن اعدى الاول » .

أخرجه البخاري ومسلم واللفظ لمسلم

عن أبي هريرة :

(٣) « لا يورد ممرض على مصح »

أخرجه البخاري ومسلم

(٤) عن اسامة بن زيد وعن عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال عندما سئل عن الطاعون « اذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه واذا وقع بأرض وانتم بها فلا تخرجوا فرارا منه » .

أخرجه البخاري ومسلم

(٥) عن عمر بن الشريد عن أبيه قال : « كان في وفد ثقيف رجل مجذوم فارسل اليه النبي ﷺ أنا قد بايعناك » .

أخرجه مسلم

(٦) وثبت عن جابر ان النبي ﷺ أكل مع المجذوم في قصعة واحدة وقال له : « كل ثقة بالله وتوكلا عليه » .

أخرجه الترمذي

ففي هذه الاحاديث الشريفة يبين رسول الله ﷺ للعرب وللناس كافة . . أن العدوى وحدها او الميكروب وحده ليس هو السبب في حصول المرض وان هناك أسبابا أخرى بيد الله سبحانه وتعالى ان شاء صرفها وان شاء جمعها فكان المرض وكانت العدوى . . . أما الاعتقاد بأن هذا الميكروب هو سبب المرض الوحيد وأن العدوى هي سبب المرض الوحيد فهو اولا : جهل بحقائق الاشياء . . وثانيا : جهل بقدرة الخالق عز وجل وثالثا : تعظيم للاسباب الظاهرة فيتكل عليها المرء وبذلك يخرج من دائرة التوحيد الى دائرة الشرك بالله تعالى : فيرى الاسباب الظاهرة ولا يرى سببها الحقيقي وهو الله جلت قدرته وتعالت حكمته . . فيضل كما ضل السابقون من عرب ومن عجم . . وكما ضل اللاحقون والمعاصرون من ذوي

الكلمات الرنانة والالفاظ البراقة . . التي يخدعون بها الناس عن الحقيقة وما يخدعون بها الا انفسهم وما يشعرون .

ولا بد اذن من الالتفات الى المسبب الاول كما قال رسول الله ﷺ لذلك الاعرابي فمن اعدى الاول . . وبذلك ترد الامور كلها الى الله الواحد الاحد المتصرف في كونه وعباده بما شاء كما يشاء . . بالصحة والمرض وبالعدوى والمقاومة .

والميكروب لوحده لا يساوي المرض . .

والعدوى لوحدها لا تساوي العاهة والسقم . .

وانما هناك اسباب اخرى ليست بيد العبد ولا في مقدوره ان يتحكم بها بل ولا يعلمها . . هي التي تهيء جسمه للصحة أو المرض للعدوى أو المقاومة .

وهذه الاحاديث ترد الناس الى كمال التوحيد وتردهم الى ربهم الذي تقوم به الاسباب . . فهو الذي ان شاء جعل هذا الميكروب سبباً للمرض . . وان شاء جعله وقاية له من الامراض . . وان شاء جعل ميكروب الحمى الشوكية داء وبيلا لا إبلال منه وان شاء جعله حملا وديعا يعيش في حلق ذلك الشخص وبلعومه دون أن يسبب له اي أذى .

وهو الذي ان شاء جعل فيروس شلل الاطفال مرضا وبيلا خطيرا يشل الاطراف أو يشل اعضاء التنفس . . وان شاء جعله حماية ووقاية لذلك الطفل من ذلك المرض في مستقبل الايام . . وهو الذي ان شاء جعل تلك البكتريا التي تعيش معنا في وئام تتحول فجأة الى اعصار مدمر يهدم كل بنيان فيحول بكتريا الامعاء التي تمدنا ببعض الغذاء (الفيتامينات) الى افاعٍ سامة تفتك بنا في ايام ولحظات .

وهو الذي خلق الداء وخلق الدواء . . وهو الذي ان شاء جعل من الداء دواء وجعل من الدواء داء . . فكم من داء في الاصل اذا أصاب شخصا انقلب في حقه الى دواء . . وما مثال المناعة والمنعة التي يحصل عليها الطفل الذي يصاب بميكروب (فيروس) شلل الاطفال إلا مثال بسيط على ذلك . . وكم من الأدواء تصيب الانسان فلا يصاب بها ولا تضره بل تتحول الى قوة والى مناعة . . بل ان معرفة هذا السر قد فتحت للانسان آفاقا واسعة بدأ في استخدامها منذ أواخر القرن الماضي عندما عرف طبيب انجليزي يدعى جينر سر المقاومة التي يحصل عليها الشخص بالتلقيح بميكروب جدري البقر فتتكون لدى جسمه مناعة لمرض الجدري . . وما هذه الحملات الواسعة للتطعيم ضد الامراض المختلفة من جدري وحصبة وسعال

ديكي وشلل الاطفال وكوليرا وتيفويد الا نتيجة لهذه المعرفة المحدودة والتي وهبنا الله اياها . . ومبدأ التطعيم يعتمد على ادخال الميكروبات المضعفة او الميّتة الى جسم الشخص فتتعرف عليها اجهزة المقاومة الموجودة لديه فتسرع الى صنع المواد المضادة والقذائف المضادة . . فلا يهجم ذلك الميكروب مرة أخرى الا وقد تسلح الجسم بأجهزة الدفاع كاملة . . ومع ذلك فقد تنجح المقاومة وقد تفشل وقد يحصل المرء على المقاومة دون ان يسبق له التطعيم او التلقيح . . ولكن الامر يحسب بالفائدة المرجوة في الأغلب الأعم . . ولا يقال ان هذا التطعيم او التلقيح سيحميك مائة في المائة من عدوان ذلك الميكروب .

وهو الذي ان شاء جعل من الدواء داء . . او العكس . . فكم من ادوية سببت امراضا وأدواء . . بل ان الامراض الناتجة عن استعمالات الادوية والعقاقير اليوم تكاد تفوق الامراض الناتجة عن الميكروبات الغازية مجتمعة . . كما تزعم بعض الدوائر الطبية في اوروبا وامريكا اليوم وقد يوافقهم كثير من الاطباء على ذلك وقد يعترض آخرون . . ولكن الجميع يتفقون على ان الدواء الناجع قد يكون دواء مهلكا مميتا حتى ولو اعطى بالمقادير المحدودة المطلوبة وعلى الوجه المشروع المقرر عند الاطباء . . واضرب الامثلة التي يكاد ان يعرفها كل

شخص . . فالبنسلين دواء مفيد ناجع لكثير من الأمراض الميكروبية ولكن البنسلين قد يقتل المريض في لحظات بسبب ما يسمى بالحساسية . . رغم ان ذلك المريض قد اخذ البنسلين في المرات السابقة دون ان يسبب له اي أذى بل على العكس كان شفاؤه فيه . . وهكذا يتحول الدواء الى داء فجأة ودون سابق انذار . . وليست هناك من وسيلة حقيقية لمعرفة من ذا الذي سيصاب بالحساسية من هذا الدواء ومن ذا الذي لن يصاب وما فحص الحساسية المزعوم الا تخمين يقوم به الطبيب ليحمي نفسه عند التراشق بالاتهامات .

والمضادات الحيوية بأجمعها التي يستخدمها الاطباء لمحاربة الميكروبات الغازية قد تتحول من دواء الى داء . . فتقوم بقتل كثير من البكتريا النافعة أو يختل التوازن الموجود بين أنواع البكتريا الموجودة في اجسامنا فيتغلب نتيجة استعمال الأدوية نوع منها ويجد المجال أمامه مفتوحاً ليهاجم الجسم وقد كان يمنعه من ذلك ميكروبات أخرى تعيش معه . . ويعيش الجميع في وئام وسلام فاذا ما اختل التوازن انفردت تلك الميكروبات بنا وهجمت علينا هجمة شرسة فاذا نحن نعاني من امراض وبيلة . . واذا الدواء النافع الذي اخذناه ليعالج مرضا بسيطا قد تحول الى داء وبيل خطير .

وعقار الثاليدوميد له قصة مشهورة أفاضت الصحف في ذكرها . . وهو دواء مهدىء قيل انه خال من كل المضاعفات فلما أُعطي للحوامل كانت النتيجة آلاف المشوهين المولودين بدون أطراف .

ولا يتسع المجال هنا لتتبع أضرار الأدوية فذلك فرع كامل من فروع الطب يدرسه الاطباء ويتخصصون فيه . . وهو الامراض الناتجة عن التطبيب والمعالجة LA TROGENIC DISEASES .

وهكذا يصبح الداء دواء والدواء داء بفعل المشيئة الإلهية الطليقة ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن . . وهكذا تحولت النار بردا وسلاما على ابراهيم عليه السلام فهو الذي جعل النار تحرق وهو الذي جعلها بردا وسلاما . . وهو القادر على ان يحيل أي داء الى دواء ويحيل أي دواء الى داء .

ولكن ذلك كله لا ينفي الاسباب . . فالاسباب موجودة بقدر الله وقدرته . . ونحن مطالبون بمعرفة الاسباب واتخاذها فان هذا لا ينافي كمال التوحيد ولكن الذي ينافي التوحيد هو اعتقاد الاسباب انها فاعلة بذاتها . . فلا ينظر الا اليها ولا يعتمد ولا يثق الا بها . . وينسى الله الذي بيده الاسباب كلها يصرفها كيف يشاء . . فلا ينبغي على المؤمن أن يتوكل أو

يعتمد على أحد غير الله ومع ذلك عليه ان يتخذ الاسباب ويعلم انها مربوبة مقهورة بيد بارئها وخالقها .

ولذا جاءت الاحاديث النبوية الشريفة توضح ذلك في ابلغ عبارة وأجمل بيان . « لا عدوى ولا طيرة وفر من المجذوم كما تفر من الأسد » لا عدوى بذاتها . . ومع هذا لا بد من أخذ الاسباب والاحتياط وأن تفر من المجذوم « ولا يورد ممرض على مصح » ولا يحتك المريض بالصحيح فان ذلك ادعى لانتقال المرض . . ولذا رفض مبايعة المجذوم بيده تعليما وتشريعا حتى يجتنب افراد أمته دواعي المرض . . ومع ذلك أكل مع المجذوم ثقة بالله وتوكلا عليه . . حتى يعلم الجميع ان الامر كله بيد الله وان العدوى لا تكون الا بإرادة الله . . وان الله الواحد الاحد هو المتصرف في ملكه وأن الأسباب جميعا بيده . . وأن التوكل عليه والثقة به من أهم أسباب دفع العدوى مع الأخذ بالاسباب الظاهرة المعلومة . . فإن هناك من الأسباب الخفية المجهولة ما تجعل الداء دواء وما تجعل الدواء داء . .

وكذلك شرح رسول الله لأمته قولا وفعلا الحال بالنسبة إلى التداوي فقد تداوى وأمر بالتداوي وقال : إن الذي أنزل الداء أنزل الدواء » وأمر عباد الله بالتداوي . . ولكنه نهاهم ان يتداووا بحرام . . ولم يجعل الدواء سببا بذاته للشفاء فقد قال

تعالى على لسان ابراهيم الخليل عليه السلام « واذا مرضت فهو يشفين » فالشفاء من الله والصحة والمرض بيد الله . . كما أن بيده الامور كلها يصرفها كيف يشاء لاراد لحكمه ولا معقب على قضائه .

وما أجمل عبارة ابن القيم عندما تعرض للاحاديث في هذا الباب بعد أن أورد مختلف الآراء فقال: «وعندي في الحديث مسلك آخر يتضمن اثبات الاسباب والحكم . ونفي ما كانوا عليه من الشرك واعتقاد الباطل . . ووقوع النفي والاثبات على وجهه (أي لا عدوى . . وفر من المجذوم) فان العوام كانوا يثبتون العدوى على مذهبهم من الشرك الباطل كما يقوله المنجمون من تأثير الكواكب في هذا العالم سعودها ونحوسها . ولو قالوا انها أسباب أو أجزاء أسباب اذا شاء الله صرف مقتضياتها بمشيئته وارادته وحكمته وانها مسخرة بأمره لما خلقت له وانها في ذلك بمنزلة سائر الاسباب التي ربط بها مسبباتها وجعل لها أسبابا أخرى تعارضها وتمانعها (المقاومة) وتمنع اقتضاءها لما حصلت أسبابا له . . وانها لا تقضي مسبباتها الا بإذنه ومشيئته وإرادته . وليس لها من ذاتها ضر ولا نفع ولا تأثير البتة . . ان هي الا خلق مسخر مربوب لا تتحرك الا باذن خالقها ومشيئته . وغايتها انها جزء سبب وليست سببا تاما

فسببيتها من جنس سبب وطء الوالد في حصول الولد فانه جزء واحد من أجزاء كثيرة من الاسباب التي خلق الله بها الجنين . وكسببية شق الارض والقاء البذر فانه جزء يسير من جملة الاسباب التي يكّون الله بها النبات . . وهكذا جملة أسباب العالم من الغذاء والرواء والعافية والسقم وغير ذلك . وأن الله جعل من ذلك سببا ما يشاء ويبطل السببية عما يشاء . . ويخلق من الاسباب المعارضة له ما يحول بينه وبين مقتضاه . . فهم لو اثبتوا العدوى على هذا الوجه لما انكر عليهم كما ان ذلك ثابت في الداء والدواء وقد تداوى النبي ﷺ وأمر بالتداوي واخبر انه ما أنزل الله داء الا انزل له دواء الا الهرم . فأعلمنا انه خالق أسباب الداء وأسباب الدواء المعارضة المقاومة لها . . وأمرنا بدفع تلك الاسباب المكروهة بهذه الاسباب » .

وعلى هذا قيام مصالح الدارين بل الخلق والامر مبني على هذه القاعدة فان تعطيل الاسباب واخراجها عن ان تكون أسبابا تعطيل للشرع ومصالح الدنيا . والاعتماد عليها والركون اليها واعتقاد ان المسببات بها وحدها وأنها أسباب تامة شرك بالخالق عز وجل وجهل به وخروج عن حقيقة التوحيد . واثبات مسببيتها على الوجه الذي خلقها الله عليه وجعلها له اثبات للخلق والامر للشرع والقدرة للسبب والمشيئة ، وللتوحيد

والحكمة . . فالشارع يثبت هذا ولا ينفيه وينفي ما عليه المشركون من اعتقادهم في ذلك .

والمقامات ثلاثة : احدهما تجريد التوحيد واثبات الاسباب . وهذا الذي جاءت به الشرائع وهو مطابق للواقع في نفس الامر .

والثاني : الشرك في الاسباب بالمعبود كما هو حال المشركين على اختلاف اصنافهم .

والثالث : انكار الاسباب بالكلية محافظة من منكرها على التوحيد .

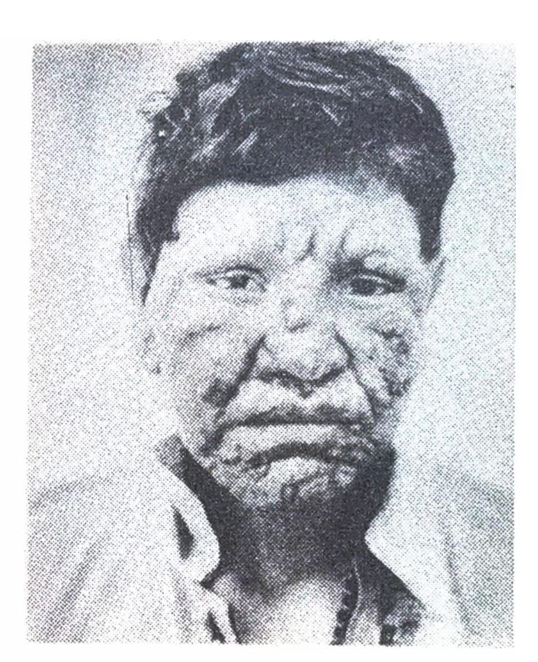
فالمنحرفون طرفان مذمومان : إمّا قادح في التوحيد بالاسباب وإما منكر للاسباب بالتوحيد والحق غير ذلك . وهو اثبات التوحيد والاسباب وربط أحدهما بالآخر . فالاسباب محل حكمة الديني والكوني . والحكمان عليها يجريان . . بل عليها يترتب الامر والنهي والثواب والعقاب ورضى الرب وسخطه ولعنته وكرامته . . والتوحيد تجريد الربوبية والإلهية عن كل شرك فانكار الاسباب انكار الحكمة . والشرك بالاسباب قدح في توحيده واثباتها والتعلق به والتوكل عليه والخوف منه والرجاء له وحده هو محض التوحيد والمعرفة تفرق

بين ما اثبته الرسول وبين ما نفاه وبين ما أبطله وبين ما اعتبره .

فهذا لون وهذا لون والله الموفق للصواب » .

ا ـ هـ . من كتاب مفتاح دار السعادة

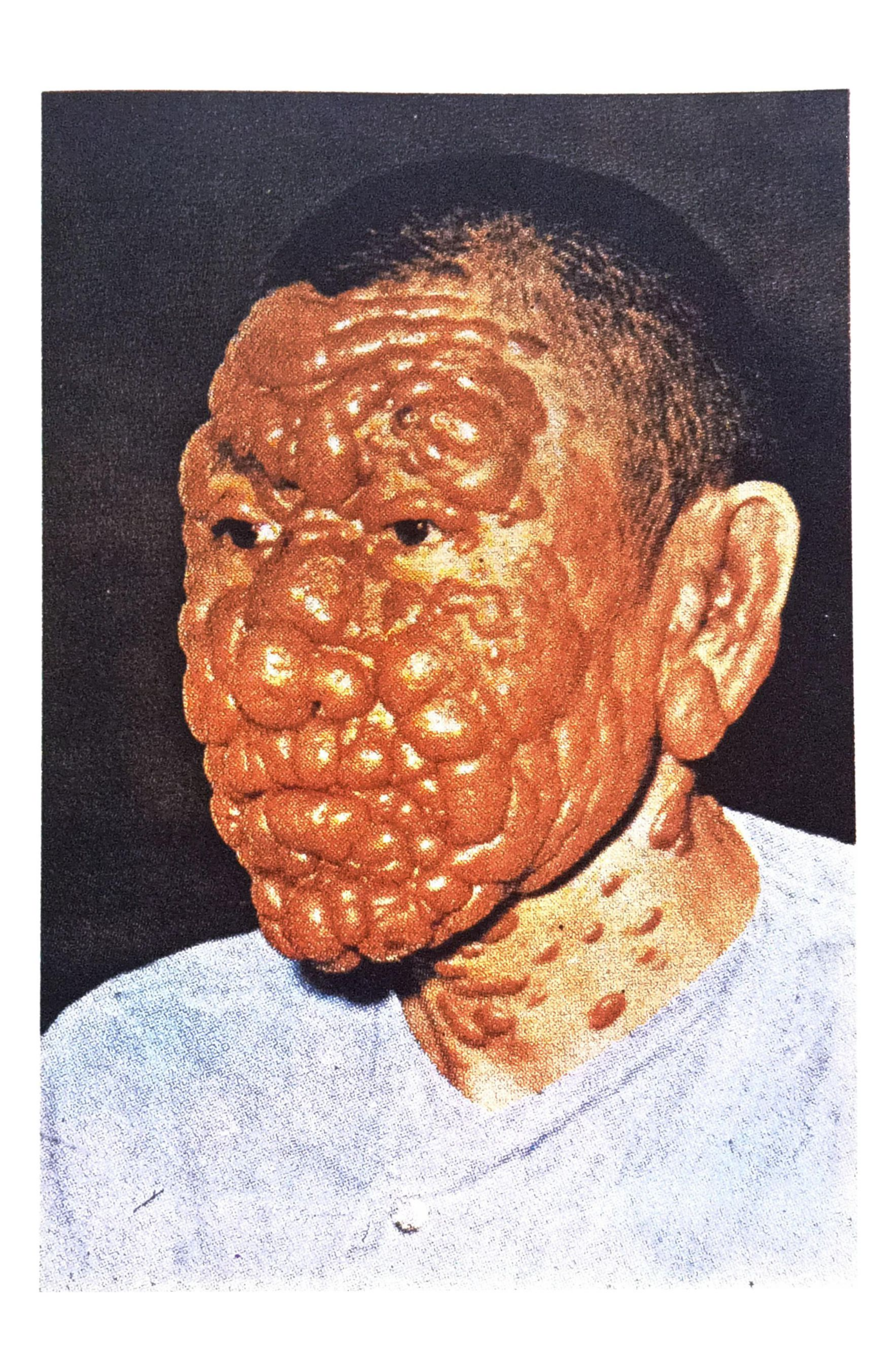
الجذام











مجموعة من الصور لمرضى الجذام . . وسبب الجذام بكتريا عصوية تشبه ميكروب الدرن الى حد كبير . . ورغم أن الجذام مرض معدي الا أن العدوى فيه بطيئة وليست سريعة . . ولا بد في الغالب من المخالطة الطويلة للمجذوم لبضع سنين قبل أن تنتقل العدوى . . ومع هذا فهناك من يخالط المجذوم فترة قصيرة ويصاب بالمرض وهناك من يخالطه لسنوات ولا يصاب به . . ويظهر الجذام بصورتين إكلينيكيتين مختلفتين :

١) الجذام الأسدي LEPROMATOUS LEPROSY
٢) الجذام الدرني TUBERCULOID LEPROSY

فأما أحدهما فيشبه فيها وجه المجذوم وجه الاسد ولعل في ذلك مناسبة في الحديث الشريف حيث يقول ﷺ « فر من المجذوم فرارك من الأسد » .

وبما أن مخالطة المجذوم وحدها لا تسبب الجذام فإن رسول الله ﷺ أكل مع المجذوم في قصعة واحدة وقال له :«كل ثقة بالله وتوكلا عليه » وذلك تعليم لأمته أن العدوى لا تعدي بطبعها ولكن ذلك يتم بقدر الله وقدرته . . وفي الحديث الآخر أرشدهم الى تجنب اسباب الداء . . والأخذ بالعافية . . فقال ﷺ « فر من المجذوم فرارك من الأسد» . وقال للمجذوم الذي أراد أن يبايعه والذي جاء في وفد ثقيف « إنا قد بايعناك » ولم يصافحه كعادته في اخذ البيعة من الرجال . وكل ذلك إرشاد لأمته حتى تأخذ بالاسباب وهي تعلم أن الاسباب مربوبة مقهورة . . وانها ليست آلهة تعبد من دون الله .

ويقول الامام ابن القيم عند حديثه عن قصة المجذوم
« وأما قضية المجذوم فلا ريب أنه روى عن النبي ﷺ انه قال فر من المجذوم فرارك من الاسد . . وأرسل الى ذلك المجذوم أنّا قد بايعناك فارجع . . وأخذ بيد المجذوم فوضعها في القصعة وقال : كل ثقة بالله وتوكلا عليه . . ولا تنافي بين هذه الآثار . . ومن احاط علما بما قدمناه تبيّن له وجهها وأن غاية ذلك ان مخالطة المجذوم من اسباب العدوى . وهذا السبب يعارضه اسباب اخر تمنع اقتضاؤه . . فمن اقواها التوكل على الله والثقة به ، فانه يمنع تأثير ذلك السبب المكروه ولكن لا يقدر كل واحد من الامة على هذا فأرشدهم الى مجانبة سبب المكروه والبعد منه . ولذلك أرسل الى المجذوم الآخر بالبيعة تشريعا منه للفرار من أسباب الأذى والمكروه . . . ولا يتعرض العبد لاسباب البلاء ؛ ثم وضع يده معه في القصعة فإنما هو سبب التوكل على الله والثقة به الذي هو من اعظم الاسباب التي يدفع بها المكروه والمحذور تعليما منه للامة دفع الاسباب بما هو أقوى منها واعلاما بان الضر والنفع بيد الله عز وجل فان شاء ان يضر عبده ضره وان شاء ان يصرف عنه الضر صرفه . . بل ان شاء ان ينفعه بما هو من اسباب الضرر ويضره بما هو من أسباب النفع فعل ليتبين العباد أنه وحده الضار النافع وان اسباب الضر بيديه وهو الذي جعلها أسبابا وإن شاء خلع

منها سببيتها . . وإن شاء جعل ما تقتضيه بخلاف المعهود منها ليعلم انه الفاعل المختار وانه لا يضر شيء ولا ينفع الا بأذنه . . وإن التوكل عليه والثقة به تحيل الاسباب المكروهة الى خلاف موجباتها . . وأنه سبحانه هو الذي يضر بها وينفع ليس إليها ولا لها من الامر شيء وأن الامر كله لله » .

« فالتوحيد من أقوى أسباب الأمن من المخاوف والشرك من أعظم أسباب حصول المخاوف والخوف دائما مع الشرك والامن دائما مع التوحيد . . قال تعالى عن خليله ابراهيم أنه قال في محاجته لقومه : وكيف اخاف ما أشركتم به ولا تخافون انكم اشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطانا فأي الفريقين أحق بالامن ان كنتم تعلمون » فحكم الله بين الفريقين فقال : «الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الامن وهم مهتدون » .

« ولذلك من خاف شيئا غير الله سلط عليه وكان خوفه منه هو سبب تسليطه عليه ، ولو خاف الله دونه ولم يخفه لكان عدم خوفه منه وتوكله على الله من أعظم أسباب نجاته منه . . وكذلك من رجا شيئا غير الله حرم ما رجاه منه وكان رجاؤ ه غير الله من أقوى أسباب حرمانه فاذا رجا الله وحده كان توحيد رجائه أقوى اسباب الفوز بما رجاه او بنظيره او بما هو انفع له

والله الموفق للصواب » هـ .

وليس هذا الذي سقناه رأياً تفرد به الامام ابن القيم بل هو رأي جمهور علماء الاسلام . . وانما يمتاز الامام ابن القيم بطلاوة الاسلوب وعمق الفهم وزيادة الشرح ونكتفي هنا بما قاله الامام النووي في شرح صحيح مسلم عندما تكلم عن حديث « لا عدوى ولا طيره » وحديث « لا يورد ممرض على مصح » . قال الامام النووي ما يلي :

« قال جمهور العلماء يجب الجمع بين هذين الحديثين وهما صحيحان . قالوا وطريق الجمع ان حديث لا عدوى المراد به نفي ما كانت الجاهلية تزعمه وتعتقده ان المرض والعاهة تعدي بطبعها لا بفعل الله تعالى . . وأما حديث لا يورد ممرض على مصح فأرشد فيه الى مجانبة ما يحصل الضرر عنده في العادة بفعل الله تعالى وقدره . . فنفى في الحديث الاول العدوى بطبعها ولم ينف حصول الضرر عند ذلك بقدر الله وفعله

وارشد في الثاني الى الاحتراز مما يحصل عنده الضرر بفعل الله وارادته .

فهذا الذي ذكرناه من تصحيح الحديثين والجمع بينهما هو الصواب الذي عليه جمهور العلماء ويتعين المصير اليه » .

وكلام الامام النووي على إيجازه قد بلغ الغاية وأوفى على المطلوب فأوضح أن العدوى بذاتها ليست فاعلة . . وأن الفاعل الحقيقي هو الله سبحانه وتعالى . . وهذا لا ينافي الأخذ بالأسباب وتجنب أسباب الداء . . وإنما الأخذ بالأسباب مع العلم أنها ليست فاعلة بذاتها وإنما هي مربوبة مقهورة يصرفها خالقها كيف يشاء . . هو الحق الذي لا مرية فيه . . وهو في نفس الوقت يقوم بالأسباب في عالم الأسباب دون أن يغفل لحظة واحدة عن خالق الأسباب . وعن خالق الداء والدواء الذي إن شاء جعل الداء دواء والدواء داء .

والله نسأل أن يعصمنا من أن نشرك به شيئا نعلمه ، ونستغفره لما لا نعلمه .

الطاعون « غدة كغدة البعير يخرج في المراق (المنطقة الاربية) والإبط »

حديث شريف

الطاعون « غدة كغدة البعير يخرج في المراق والإبط »

حديث شريف



الفصل الثاني

الطاعون بين الحديث النبوي والطب الحديث

إن أهم الاحاديث التي وردت في الطاعون هي :

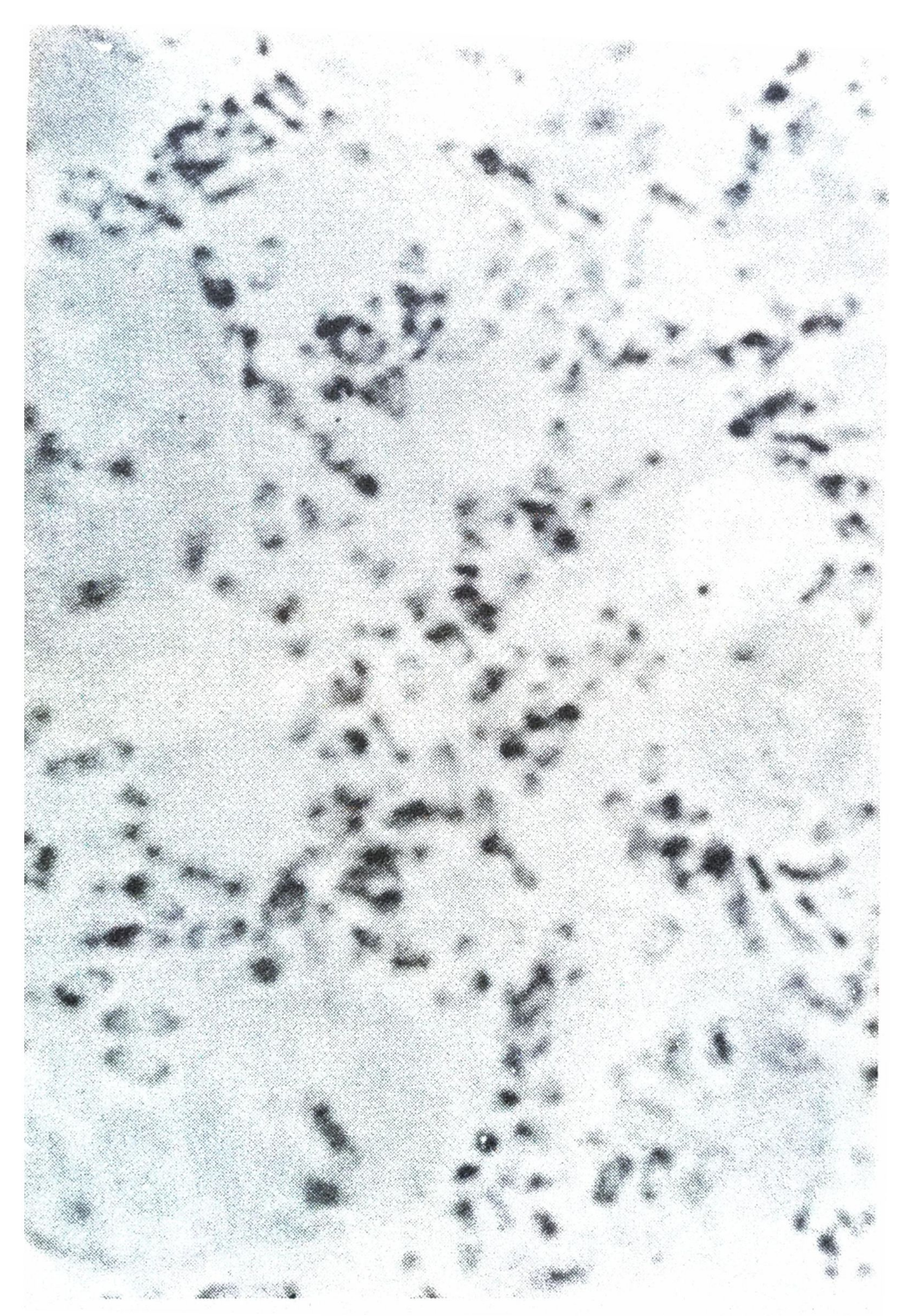
١ ـ أخرج البخاري[١] ومسلم عن أسامة بن زيد رضى الله عنهما أن النبي ﷺ قال : ـ

« إن هذا الطاعون رجز على من كان قبلكم أو على بني إسرائيل فإذا كان بأرض فلا تخرجوا منها فراراً منه . وإذا كان بأرض فلا تدخلوها » .

٢ ـ أخرج الامام أحمد[٢] عن عائشة رضي الله عنها قالت : يا رسول الله فما الطاعون ؟ « قال : غدة كغدة الابل . المقيم

(١) الحديث رقم ٥٧٢٨ كتاب الطب ، صحيح البخاري . . وأخرجه ايضا النسائي وأحمد في مسنده وفي ذكر بني اسرائيل .

(٢) واخرجه أيضا ابن خزيمة .



صورة مكبرة ١٢٥٠ مرة لمجموعة من البكتريا المسببة للطاعون .
وهي من فصيلة يرسينيا (الباستولارا) وهي عصوية عنقودية
Gram negative coccobacillus

فيها كالشهيد والفّار منها كالفار من الزحف » .

٣ ـ وعن عائشة رضي الله عنها قالت للنبي ﷺ : « الطعن عرفناه . فما الطاعون ؟ قال غدة كغدة البعير يخرج في المراق والابط » .

أخرجه البخاري في كتاب الطب **٥٧٣٤** ونقله ابن القيم في الطب النبوي

٤ ـ « المطعون شهيد والمبطون شهيد » (والمطعون هو الذي توفي نتيجة الاصابة بالطاعون) .

أخرجه البخاري (كتاب الطب رقم **٥٧٣٣**)

وفي رواية « الطاعون شهادة لكل مسلم »

أخرجه البخاري في كتاب الطب رقم **٥٧٣٢**

٥ ـ « إن الطاعون لا يدخل المدينة » .

وفي رواية « لا يدخل المدينة المسيح الدجال ولا الطاعون »

أخرجه البخاري كتاب الطب ٥٧٣١

٦ ـ أخرج البخاري ومسلم عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه خرج إلى الشام حتى إذا كان بسرغ (قرية في طرف الشام مما يلي الحجاز) لقيه أهل الأجناد أبو عبيدة بن الجراح واصحابه فأخبروه أن الوباء قد وقع بالشام . . قال ابن عباس : قال عمر : « ادعُ لي المهاجرين الأولين » فدعوتهم فاستشارهم



الطاعون قروح تخرج من الجسد فتكون في المراق أو الآباط أو الأيدي أو الأصابع وتخرج تلك القروح مع لهيب ويسوّد ما حواليه أو يخضر أو يحمر حمرة بنفسجية »

من وصف الامام النووي للطاعون
في شرحه لصحيح مسلم



الطاعون ورم رديء قتال وفي الأكثر يحدث في ثلاثة مواضع في الإبط وخلف الأذن
(كما تراه في الصورة)
والأرنبة وفي اللحوم الرخوة »

من كلام
ابن القيم في الطب النبوي



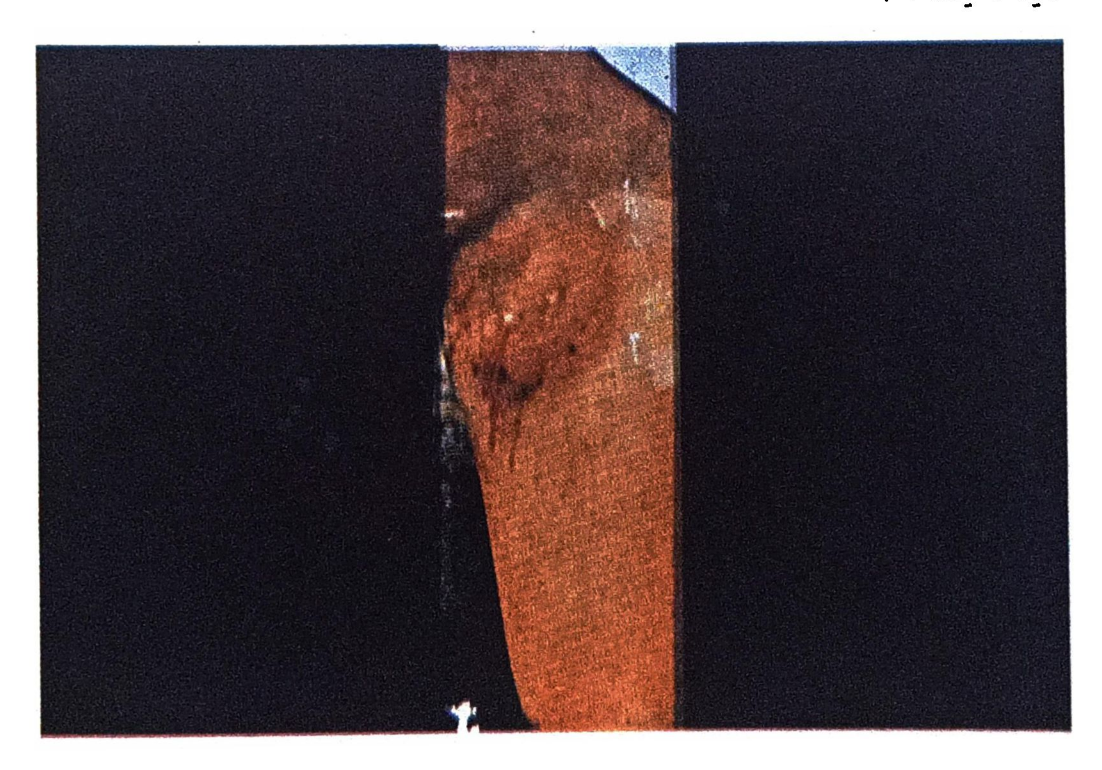
صورة لمريض بالكوليرا « الهيضة » . . ويبدو وكأنه يعاني من سكرات الموت وذلك نتيجة فقدانه لسوائل جسمه نتيجة الاسهال الشديد . . سبب هذا المرض بكتيريا داويه «Vibrios» وهي ضعيفة أشد الضعف فبمجرد تعرضها للشمس أو للحرارة أو لشيء من الحموضة تموت . . ومع هذا فهي تصرع الانسان القوي . .

والكوليرا من الامراض المعدية . . والتي يطلب فيها الحجر الصحي . . والرسول ﷺ قد أمر بالأخذ بالاسباب وبالحجر الصحي . . وقال عن الطاعون « إذا كان بأرض فلا تخرجوا منها فرارا منه وإذا كان بأرض فلا تدخلوها » .

وجمع للمصاب بالطاعون والكوليرا أجر الشهادة « المطعون شهيد والمبطون شهيد » والمطعون هو الذي أصيب بالطاعون والمبطون هو الذي

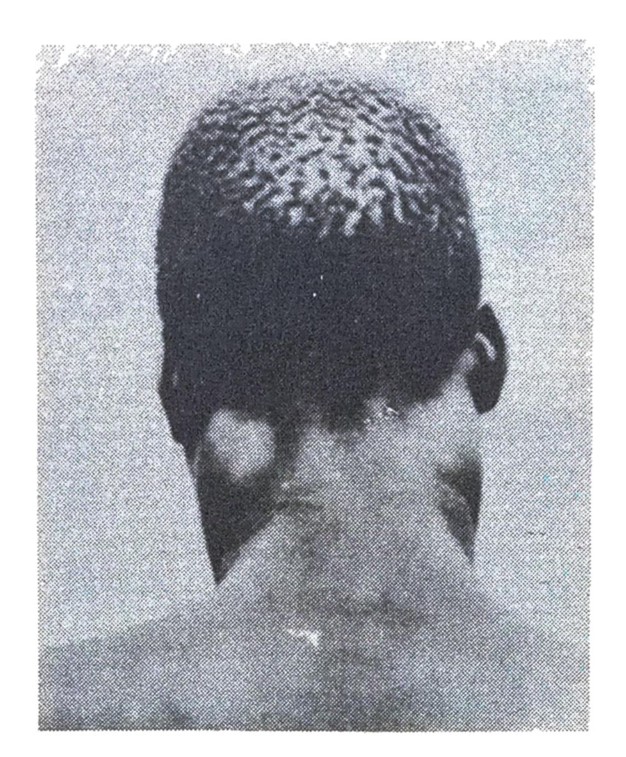
أصيب بالاسهال الشديد وهو لا يكون في الغالب الا في الكوليرا . . « والمقيم فيها كالشهيد والفار منها كالفار من الزحف » .

ومع هذا كله فكم من شخص يحمل ميكروب الكوليرا دون أن يصاب بأي أذى وكم من شخص يصاب به فلا يبدو عليه الا إسهال خفيف بل إن أغلب من يصابون بميكروب الكوليرا لا يبدو عليهم أي مرض ومن يصاب منهم يبدو عليه إسهال بسيط . . وقلة هم الذين تبدو عليهم أعراض مرض الكوليرا بالاسهال الشديد حيث يفقد المريض عشرات اللترات من ماء جسمه نتيجة الاسهال . فالميكروب لوحده لا يسبب المرض . . وإنما هناك اسباب اخرى تساعد في ذلك أو تمنعه . . والامر كله لمن بيده الأمر يصرفه كيف يشاء .

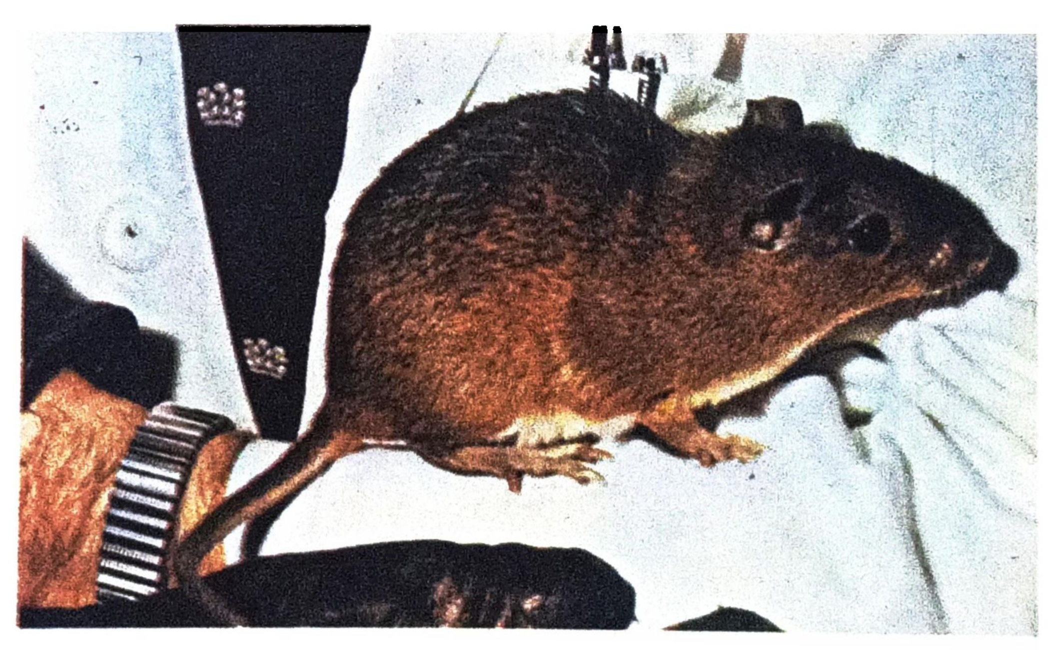


« الطاعون غدة كغدة البعير يخرج في المراق والابط » حديث شريف اخرجه البخاري

وفي الصورة (أ) ترى هذه الغدة التي تسيل منها الدماء في المراق (المنطقة الاربية وهي منطقة التقاء الفخذ بأسفل البطن) . .

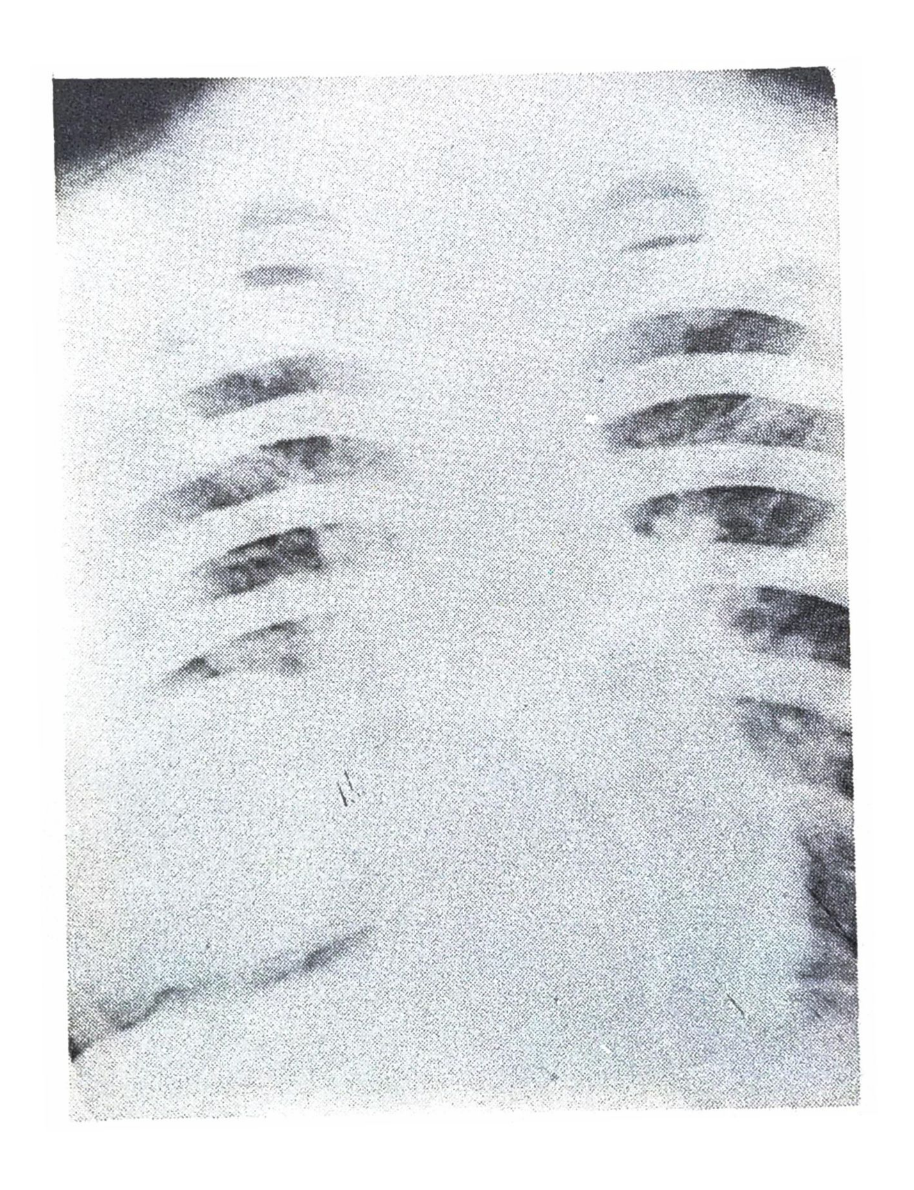


وفي الصورة (ب) يظهر كغدة خلف الاذن ويصفه ابن القيم في الطب النبوي بقوله « الطاعون ورم رديء قتال وفي الاكثر يحدث في ثلاثة مواضع : في الابط وخلف الاذن والارنبة وفي اللحوم الرخوة »



صورة لفأر وهو الحيوان المسئول عن نقل الطاعون إذ ينقله برغوث

يعيش على الفئران من فأر الى آخر ومن ثم الى الانسان حيث يقوم البرغوث بامتصاص دم الانسان فينتقل الميكروب عبر الاوعية اللمفاوية الى الغدد فإذا كانت القرصة في الساق انتقل الى المراق وإذا كانت في اليد أو الذراع انتقلت الميكروبات الى الابط واذا كانت في الوجه او الرقبة انتقلت الى الغدد الموجودة في الرقبة . . كما هو واضح من الصور السابقة .



الطاعون الرئوي

صورة اشعة لصدر مريض بالطاعون الرئوي الذي ينتقل من الانسان

الى الانسان مباشرة وذلك بواسطة الرذاذ والبصاق وهو أشد خطراً من الطاعون الغددي الذي يصيب الفئران أولاً ثم ينتقل بواسطة وخز البراغيث الى الانسان فيصيب الغدد اللمفاوية في المراق والابط وخلف الاذن . . وأبرع من وصف الطاعون الرئوي هو الامام الغزالي كما ينقله عنه الحافظ بن حجر العسقلاني في فتح الباري حيث يقول : «إن الهواء (في البلدة المصابة بالطاعون) لا يضر من حيث ملاقاته ظاهر البدن بل من حيث دوام استنشاقه فيصل الى القلب والرئة فيؤثر في الباطن ولا يؤثر في الظاهر الا بعد التأثير في الباطن » ا . هـ .

إن الميكروب في الطاعون الرئوي ينتقل مباشرة بواسطة الهواء الى الرئتين والقلب ولذا فانه لا يكاد ينجو منه أحد ممن أصيب به الا إذا عولج بسرعة فائقة . . إذ يموت المصاب به في خلال خمسة أيام منذ بدء الاعراض في اغلب الحالات .

وأخبرهم أن الوباء قد وقع بالشام فاختلفوا فقال بعضهم : « قد خرجت لأمر ولا نرى أن ترجع عنه » . وقال بعضهم : « معك بقية الناس واصحاب رسول الله ﷺ ولا نرى أن تقدمهم على هذا الوباء » .

فقال عمر : ارتفعوا عني .

ثم قال : أدع لي الانصار فدعوتهم له فاستشارهم فسلكوا سبيل المهاجرين واختلفوا كاختلافهم فقال : ارتفعوا عني .

ثم قال: ادع لي من كان ها هنا من مشيخة قريش من مهاجرة الفتح فدعوتهم فلم يختلف عليه رجلان فقالوا : « نرى أن ترجع بالناس ولا تقدمهم على هذا الوباء » .

فنادى عمر في الناس : إني مصبح على ظهر فاصبحوا عليه (أي اني مسافر غداً فاستعدوا للسفر) فقال أبو عبيدة بن الجراح : أفرارا من قدر الله فقال عمر : لو غيرك قالها يا أبا عبيدة ! نعم نفر من قدر الله الى قدر الله أرأيت لو كانت لك إبل فهبطت واديا له عدوتان احداهما خصبة والأخرى جدبة أليس إن رعيت الخصبة رعيتها بقدر الله وإن رعيت الجدبة رعيتها بقدر الله .

قال، فجاء عبد الرحمن بن عوف وكان متغيبا في بعض حاجته فقال : إن عندي من هذا علما . . سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه وإذا وقع

بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فراراً منه » .

قال، فحمد الله عمر بن الخطاب ثم انصرف . ا . هـ .

نبذة تاريخية : ـ

والطاعون وباء شديد الخطورة أصاب الامم السابقة وكان شديد الفتك بهم . . وأول وصف للطاعون معروف الى الآن هو الذي سجله قدماء المصريين على أوراق البردي . . وقد حدث طاعون مريع عام ٥٤٢ قبل الميلاد واكتسح شمال افريقيا وأوروبا وآسيا أي العالم القديم باكمله . . واستمر ينتشر من بلد الى آخر لمدة خمسين عاما . . وقد أصيب في ذلك الوباء مائة مليون شخص تقريبا . . وكاد أن يبيد أكثر من نصف سكان العالم آنذاك (مرجع سيسل لوب الطبي طبعة ١٩٧١) . . وهو بهذه الصورة المريعة رجز، وعذاب أي عذاب تصديقاً للحديث النبوي « إن هذا الطاعون رجز على من كان قبلكم » .

واستمر الطاعون في الظهور من حين لآخر . . وقد ظهر في زمن عمر بن الخطاب رضي الله عنه . . وهو المشهور بطاعون عمواس . . وعمواس قرية من قرى الشام ظهر فيها هذا الوباء ثم انتشر في كثير من مدن الشام واستشهد فيه كثير من الصحابة . . وفيه جرت تلك المحاورة التي أوردناها بطولها

نقلا عن الامامين البخاري ومسلم عندما استقبل الاجناد عمر رضي الله عنه بقرية سرغ وهي من أوائل قرى الشام المتصلة بالحجاز . . وظهر جليا عندئذ انقسام الصحابة رضي الله عنهم الى فريقين : فريق يعارض دخول عمر الشام ومعه جلة الصحابة الى موقع الوباء . . وفريق يرى أنهم قد قدموا لأمر ولا بد من إنفاذه توكلاً على الله وثقة به . . وذلك كله قبل أن يبلغهم الحديث النبوي الذي رواه عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه الذي كان متغيبا في بعض حاجته . . كما وقعت تلك المناظرة بين عمر رضى الله عنه والصحابي الجليل أبو عبيدة بن الجراح الذي قال لعمر : أفرارا من قدر الله ؟ فأجاب عمر : نعم نفر من قدر الله الى قدر الله . . وأوضح بجلاء أن اتخاذ الاسباب هو من قدر الله . . وأن التوكل على الله والثقة به والاعتماد عليه لا ينافي اتخاذ الاسباب والأخذ بها . . بل أن اتخاذ الاسباب هو نفسه من الايمان بقدر الله . لأن الاسباب كلها بيد الله وهي مربوبة مقهورة وهي من سنن الله الكونية . . والسير وفق السنن الكونية لا ينافي الايمان بالله والتوكل عليه والثقة به .

واستمر الطاعون في الظهور من حين الى آخر . . وظهر بصورة وباء عالمي في القرن الرابع عشر الميلادي واكتسح أوربا

وآسيا . . وكان عدد ضحاياه في أوروبا وحدها خمسة وعشرون مليونا . . وهم ربع سكان أوروبا آنذاك . . وقد أطلق عليه اسم « الموت الأسود » لانه قلما ينجو منه أحد . . ولأن القروح التي كانت تظهر على الجلد في الآباط والمراق وفي الرقبة كانت سوداء وما حولها من الجلد أكمد وبه حمرة داكنة (مرجع سيسل لوب الطبي طبعة ٧١ . ومرجع برايس الطبي طبعة ٦٦) . .

وتكرر ظهور الطاعون منذ ذلك التاريخ في مناطق متعددة من العالم . . ولا يزال يوجد حتى الآن في مناطق من الهند بصورة مرض متوطن . . وبصورة أقل في جنوب الصين وبعض جزر اندونيسيا وبعض مناطق من كينيا ومدغشقر وأمريكا الجنوبية وفي بعض مناطق الولايات المتحدة الامريكية ويصيب بصورة خاصة في هذه المناطق الحيوانات البرية ويسمى الطاعون البري . . واكثر الحيوانات إصابة به هي الجرذان والفيران والجربوع والمرموت (وكلها من القوارض) .

والمدينة الوحيدة في العالم التي لم يصبها الطاعون خلال القرون الطويلة والأحقاب البعيدة والآماد السحيقة هي المدينة المنورة تصديقاً لحديث الرسول الكريم عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم « إن الطاعون لا يدخل المدينة » .

سبب الطاعون وطرق انتشاره :

إن سبب الطاعون ميكروب صغير يبلغ طوله ميكرونا ونصف (والميكرون واحد من المليون من المتر) . . وهو يشبه العصا وعليه غلاف . . وهو من فصيلة تدعى الباستوريلا PASTURELLA ويمكن صبغه بصبغة خاصة . كما يمكن زرعه في مزارع خاصة من الجلسرين .وتهاجم هذه البكتريا الحيوانات القارضة كالفيران والجرذان . . وتنتقل بواسطة براغيث الفيران الى غيرها من الحيوانات أو الى الانسان . . ووسائل الانتقال والعدوى كثيرة[١] .

---

(١) اكتشف ميكروب الطاعون عام ١٨٩٤ في الوباء الذي اكتسح الصين . وقد اكتشفه العالمان يرسن وشيبا سابورو كيتاسو في هونج كونج كلا منهما على حدة .

وفي عام ١٨٩٧ وضع العالم الياباني مسانوري أوجاتا نظريته بأن الطاعون ينتقل بواسطة البراغيث بعد أن اكتشف ميكروب الطاعون في برغوث الفيران .

وفي العام التالي أي ١٨٩٨ أكد العالم الفرنسي بول لويس سيموند هذه النظرية . وفي عام ١٩٠٨ تأكد بما لا يقبل الشك أن براغيث الفيران هي الناقلة للمرض . . وهي أهم سبب لانتشاره . وذلك بالتجارب التالية .

أولا : وضعت فيران مصابة بالطاعون (بعد قتل البراغيث) الى جانب فيران سليمة فلم تعدها رغم الملامسة .

ثانيا : وضعت فيران سليمة وأضيفت اليها براغيث تحمل الميكروب فأصيبت جميعها بالطاعون .

ثالثا : من المعلوم أن البرغوث لا يستطيع أن يقفز أكثر من أربع بوصات فإذا وضعت فيران سليمة على ارتفاع أكثر من أربع بوصات فوق فيران مصابة بالطاعون . . فإن الفيران الموضوعة أعلى من أربع بوصات لا تصاب الطاعون بالرغم من إصابة جميع الفيران الموضوعة على ارتفاع أربع بوصات أو أقل .

وعادة ما يعيش الميكروب على الحيوانات القارضة . فإذا ما ابتدأ الوباء انتقل بواسطة البراغيث والحشرات الى الفيران المنزلية ومنها الى الانسان ،كما قد ينتقل الميكروب بواسطة جرذان البواخر التي تعيش في مخازن السفينة ومنها إلى فيران المواني بواسطة البراغيث أو مباشرة الى البحارة؛ ولذا فإن النظم الصحية تفرض تبخير كل سفينة بالمواد القاتلة للجرذان بصفة دورية وتعطى شهادات بذلك لربان السفينة كي يقدمها الى السلطات الصحية عند دخوله أي ميناء .

ويتكاثر الميكروب في معدة البرغوث حتى يسدها . . فيزداد إحساس البرغوث بالجوع ويزداد عندئذ نهمه وقرصه وعضه . . فيمتص الدم من ضحاياه . . وفي اثناء ذلك يقيء البرغوث ما في معدته من ميكروبات فتدخل محل الوخزة والقرصة . . وينتقل الميكروب بواسطة الأوعية اللمفاوية الى الغدد اللمفاوية فإذا كانت العضة والقرصة في القدم أو الساق انتقلت الميكروبات الى الغدد اللمفاوية الموجودة في المراق (المنطقة الأربية) . . أما إذا كانت العضة في اليد أو الذراع فتنتقل الميكروبات الى غدد الابط اللمفاوية . . فإن كانت العضة في الوجه أو العنق انتقلت الميكروبات الى غدد العنق اللمفاوية .

ولا شك أن سبب هذا الداء ظل سراً دفينا الى أواخر

القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين حين توسعت الاكتشافات العلمية والطبية واستخدمت الاجهزة الحديثة التي بواسطتها أمكن رؤ ية هذه المخلوقات المتناهية في الصغر والتي تدعى البكتريا . .

ولكن الغريب حقا أن يتفطن علم من أعلام الاسلام هو الامام ابن القيم الى سبب الطاعون ويشير اليه . . فيقول في كتابه الطب النبوي : « والطواعين خراجات وقروح وأورام رديئة حادثة في المواضع المتقدم ذكرها (المراق والابط والعنق) **قلت هذه القروح والاورام والخراجات هي أثار الطاعون وليست نفسه ولكن الاطباء لمّا لم تدرك منه الا الأثر الظاهر جعلوه نفس الطاعون** » .

أليس من الغريب حقا أن يتفطن هذا الامام الفقيه المحدث الى هذه الحقيقة التي غابت عن الاطباء في زمنه ؟ ! فهو يقول : « **ولكن الاطباء لمّا لم تدرك منه الا الاثر الظاهر جعلوه نفس الطاعون** » وليس الأمر كذلك فإن سبب الطاعون شيء آخر لم يدركه الاطباء آنذاك . . وأنّى لهم أن يدركوه . . ولكن هذا الفقيه ألهم أن سبب الطاعون شيء آخر غير الأورام والخراجات الظاهرة . . كما ألهم في مواضع متعددة من كتاب القيم « الطب النبوي » حيث رد على الاطباء في زمنه ما زعموه

أن الخمر دواء . . وأوضح وأبان خطأهم وأنها ليست الا داء كما قال عنها المصطفى صلوات الله عليه . . ثم أثبت الطب الحديث صدق ما ذهب اليه ابن القيم وخطأ ما زعمه كبار الاطباء في زمنه[1] .

ولنبق قليلا مع ابن القيم وهو يشرح معنى الطاعون وعلى ماذا يطلق فيقول رحمه الله : والطاعون يعبّر عن ثلاثة أمور :

أحدها : الاثر الظاهر الذي ذكره الاطباء (وهو ما نطلق عليه اليوم أعراض المرض) .

الثاني المموت الحادث عنه . . وهو المراد بالحديث الصحيح في قوله : « الطاعون شهادة لكل مسلم » .

الثالث : السبب الفاعل لهذا الداء . .

وهو ما يجهله الاطباء في زمنه وحتى أواخر القرن التاسع عشر عندما اكتشف ميكروب الطاعون وأنه بكتريا تهاجم الجرذان والفيران وتنتقل بواسطة البراغيث والحشرات الى الانسان . .

ولقد تفطن ابن القيم ايضا الى حقيقة علمية هي أن

(١) ملحوظة : يراجع كتاب الخمر بين الطب والفقه للمؤلف .

ميكروب الطاعون لا يحتمل الحرارة الشديدة . . ولذا قل أن يظهر الطاعون بصورة وباء في الجو الحار الجاف . . واكثر ظهوره في الخريف واوائل الشتاء حيث تنخفض حرارة الجو وتكثر الامطار . . فيقول ابن القيم « والمقصود أن فساد الهواء جزء من اجزاء السبب التام والعلة الفاعلة للطاعون . . وفساده يكون لاستحالة جوهره الى الرداءة لغلبة احدى الكيفيات الرديئة عليه كالعفونة والنتن والسمّية وفي أي وقت كان من أوقات السنة . . **وإن كان أكثر حدوثه في اواخر الصيف وفي الخريف غالبا لبرد الجو وردغة الابخرة والفضلات التي كانت تتحلل في زمن الصيف** » .

ونبه الامام ابن القيم الى أن فساد الهواء هو جزء من اجزاء السبب التام وهو بذلك يرد على الاطباء في زمنه الذين كانوا يزعمون أن رداءة الهواء هي سبب الطاعون والاوبئة وموقف ابن القيم هو بالضبط موقف الطب اليوم .

الطاعون والوباء :

إن الأوبئة هي الأمراض المعدية التي تنتشر في منطقة ما وتصيب العديد من سكان تلك المنطقة ويكون مرضهم ذاك مختلفا عن الامراض العادية . . إذ أن الأمراض التي تصيب

السكان في منطقة ما تكون مختلفة تماما من شخص الى آخر أما في حالة الوباء فتجد المئات والآلاف يعانون من نفس المرض . . ولا شك أن الأوبئة هي من جملة الأمراض . . كما أن الطاعون هو أحد الامراض الوبائية . .

ولننظر الآن الى علماء الاسلام وفقهائه ومحدثيه كيف استطاعوا أن يصلوا الى هذه الحقائق العلمية التي اكتشفَت في القرن التاسع عشر واوائل العشرين . . لأنهم اهتدوا بهدي النبوة واستناروا بنورها الوضاء . .

رأي ابن حجر :

يقول شيخ المحدثين في عصره الامام ابن حجر العسقلاني في فتح الباري : « والدليل على أن الطاعون يغاير الوباء ما سيأتي في رابع أحاديث الباب « إن الطاعون لا يدخل المدينة » . . وقد سبق في حديث عائشة رضي الله عنها « قدمنا المدينة وهي أوبأ أرض الله » . . وفيه قول بلال : «أخرجونا الى ارض الوباء » فكل ذلك يدل على أن الوباء كان موجوداً بالمدينة . . وقد صرح الحديث الأول أن الطاعون لا يدخلها . . **فدل على أن الوباء غير الطاعون** . وان من أطلق على كل وباء طاعونا فبطريق المجاز » .

رأي الامام النووي :

ويقول الامام النووي في شرح صحيح مسلم ما يلي :

« وأما الوباء فقال الخليل وغيره هو الطاعون . وقال هو كل مرض عام . والصحيح الذي قاله المحققون : **أنه مرض الكثير من الناس في جهة من الارض دون سائر الجهات ويكون مخالفا للمعتاد من أمراض في الكثرة وغيرها . . ويكون مرضهم نوعا واحدا بخلاف سائر الاوقات . فإن أمراضهم فيها مختلفة . قالوا وكل طاعون وباء وليس كل وباء طاعونا** . . والوباء الذي وقع في الشام في زمن عمر كان طاعونا وهو طاعون عمواس وهي قرية معروفة بالشام » .

ولن تجد أدق من هذا التعريف للوباء الى اليوم . .

رأي ابن القيم :

يقول الامام ابن القيم في الطب النبوي ما يلي :

« والتحقيق أن بين الوباء والطاعون عموما وخصوصا . . **فكل طاعون وباء وليس كل وباء طاعونا** . . وكذلك الأمراض العامة أعم من الطاعون فإنه واحد منها .

وهكذا ترى علماء الاسلام وفقهاءه ومحدثيه ينتبهون الى نقاط دقيقة كل الدقة غامضة كل الغموض على عامة الناس بل وعلى الاطباء المتخصصين في تلك الأزمنة . . ومع ذلك يأتون بالعجب العجاب . . ويأتي الطب الحديث بعد مئات السنين ليؤ يد ما ذهبوا اليه ويصدّق ما قالوه وذكروه . . ذلك لأنهم اهتدوا بمشكاة النبوة فساروا على هديها ونورها تتلقفهم العناية الربانية فتكشف لهم حقائق هي كلها مجاهيل في زمنهم . . بل ولا يعرفها اليوم الا المتخصصون . .

ولست أدري متى نبلغ معشار ما بلغوه من دقة في الفهم وغزارة في العلم وتجرد كامل للبحث والدرس والتمحيص ؟ فجزاهم الله عن الاسلام والمسلمين خيرا . . وعسى أن نتخذهم أسوة وقدوة .

أعراض الطاعون :

قالت عائشة رضي الله عنها للنبي ﷺ : الطعن قد عرفناه فما الطاعون قال « **غدة كغدة البعير يخرج في المراق والابط** » .

والطاعون نوعان :

(١) **الطاعون الغددي** : وهو الذي ينتشر من الفيران الى الانسان بواسطة عض الحشرات وأهمها البراغيث . . فينتقل

الميكروب بواسطة الأوعية اللمفاوية من موضع عضة البرغوث على الجلد الى الغدد اللمفاوية وأهمها الموجودة في المراق وهي المنطقة الاربية عند اتصال الفخذ بالبطن وغدد الابط اللمفاوية . . ومنها غدد العنق اللمفاوية . . وتتضخم هذه الغدد وتتورم وتتقرح ويصير ما حولها أسود أو أكمد . . وكثيرا ما تنزف دما وتمتلىء صديدا . . وانظر الى وصف رسول الله ﷺ للطاعون « غدة كغدة البعير تخرج في المراق والآبط » اليس وصفا دقيقا كل الدقة !! بليغاً كل البلاغة ! . ولا غرو فقد أوتي ﷺ جوامع الكلم .

لقد قالت هذه الكلمات القليلات أهم ما يحتاج الى معرفته الشخص العادي الذي يسأل عن الطاعون . . « غدة كغدة البعير تخرج في المراق والابط » تلخص الأعراض وتشخص الداء . . ورسول الله صلوات الله عليه لم يشاهد مريضا بالطاعون . . ولا عرف الطاعون في جزيرة العرب على عهد رسول الله ﷺ . . ولكنه نور النبوة يوضح المجاهيل وينير السبيل في كل فرع من فروع المعرفة . . وفي كل ميدان من ميادين الحياة بكلمات قليلات لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها . . تصدق في المدى القريب كما تصدق في المدى البعيد . .

وينتقل الميكروب من الغدد اللمفاوية والأوعية اللمفاوية الى الدم ويسير في مجراه الى جميع أعضاء الجسم . . ولذا فلا يكاد يفلت منه عضو . . وترتفع درجة الحرارة بسرعة الى ما فوق الأربعين وتبدو على المريض علامات الإرهاق الشديد مع صداع شديد يكاد يفلق الرأس . . وسرعان ما يصاب القلب بالهبوط فالوفاة . .

وفترة الحضانة وهي الزمن ما بين دخول الميكروب الى الجسم (بداية العدوى) وظهور الأعراض في الطاعون لا تكاد تتجاوز خمسة أيام . . ويظهر المرض بصورة فجائية بالحمى والصداع وتظهر الغدد اللمفاوية المتضخمة بعدها مباشرة . . وسرعان ما تتقرح .

وإذا لم يعالج المريض بسرعة فائقة فإن ما بين ستين الى تسعين بالمائة من المصابين يلاقون حتفهم خلال خمسة أيام منذ بدء الاعراض .

هذه هي أهم أعراض الطاعون الغددي كما تذكرها المراجع الطبية الحديثة . . والآن لنستمع الى علماء الاسلام وهم يشرحون أحاديث رسول الله ﷺ عن الطاعون . . فيهتدون بهديه ويستنيرون بنوره فينير الله بصائرهم كما أنار

أبصارهم . فيتحدثون وكأنهم أطباء في القرن العشرين لا فقهاء ومحدثين من القرن الحادي عشر والثاني عشر (الميلادي) حين كانت أوروبا غارقة في ظلام « العصور المظلمة » . .

الامام النووي : يقول الامام النووي في شرحه لصحيح مسلم ما يلي :

« وأما الطاعون فهو قروح تخرج في الجسد فتكون في المراق أو الآباط أو الايدي أو الاصابع ـ وسائر البدن ويكون معه ورم وألم شديد وتخرج تلك القروح مع لهيب ويسوّد ما حواليه أو يخضّر أو يحمّر حمرة بنفسجية كدرة ويحصل معه خفقان القلب والقيء » .

الامام ابن القيم : « الطاعون من حيث اللغة نوع من الوباء . . وهو عند أهل الطب ورم رديء قتّال يخرج معه تلهب شديد مؤلم جدا يتجاوز المقدار في ذلك . . ويصير ما حوله في الأكثر أسود أو أخضر أو أكمد . . ويؤول أمره الى التقرح سريعا . . وفي الاكثر يحدث في ثلاثة مواضع : في الابط وخلف الأذن والارنبة وفي اللحوم الرخوة » .

ا . هـ . من الطب النبوي

القاضي عياض : يقول « أصل الطاعون القروح الخارجة في الجسد، والوباء عموم الأمراض فسميت طاعونا لشبهها بها في الهلاك . . والا فكل طاعون وباء وليس كل وباء طاعوناً » . .

قول ابن عبد البر : « الطاعون غدة تخرج في المراق والآباط . وقد تخرج في الايدي والاصابع وحيث شاء الله » .

قول الامام الغزالي : « الطاعون هو انتفاخ جميع البدن من الدم مع الحمى . أو انصباب الدم الى بعض الاطراف . فينتفخ ويحمر وقد يذهب ذلك العضو » .

ويقول **الشيخ الرئيس ابن سينا** : وهو أعظم أطباء الاسلام على الاطلاق والذي ظل كتابه « القانون في الطب » يدّرس على مدى سبعة قرون في العالم الاسلامي وفي أوروبا . . يقول : « الطاعون مادة سمّية تحدث ورما قتالا يحدث في المواضع الرخوة والمغابن من البدن . وأغلب ما تكون تحت الابط أو خلف الأذن أو عند الارنبة . وسببه دم رديء مائل الى العفونة والفساد يستحيل الى جوهر سُمي يفسد العضو ويغير ما يليه ويؤدي الى القلب كيفية رديئة فيحدث القيء والغثيان والغشي والخفقان . وهو لرداءته لا يقبل من الاعضاء الا ما

كان أضعف بالطبع . . . وأردؤه ما يقع في الاعضاء الرئيسية . والاسود منه قلّ من يسلم منه . وأسلمه الأحمر ثم الأصفر . . والطواعين تكثر عند الوباء في البلاد الوبئة . . « **ومن ثم اطلق على الطاعون وباء والعكس** » .

وانت ترى أن ابن سينا على جلالة قدره في الطب قد وقع في خطأ لم يقع فيه فقهاء الاسلام ومحدثيه . . ولم يفرق ابن سينا بين الوباء والطاعون بينما قد فرق علماء الاسلام بينهما مثل القاضي عياض والنووي وابن القيم وابن حجر العسقلاني وغيرهم من علماء الاسلام وفقهائه ومحدثيه . .

كما أن الاطباء في ذلك الحين ومنهم ابن سينا لم يلتفتوا الى سبب الطاعون وأنّى لهم ذلك . . بينما التفت اليه الامام ابن القيم كما نقلنا عنه وننقل الآن قول ابن حجر العسقلاني في فتح الباري « والذي يفترق به الطاعون من الوباء أصل الطاعون الذي لم يتعرض له الاطباء ولا أكثر من تكلم في تعريف الطاعون » .

وهكذا ترى علماء الاسلام ينتقدون أعظم الاطباء في زمنهم إذا تعارض ما يقوله الاطباء مع ما تقوله الاحاديث النبوية الشريفة . . وتمضي الازمان والقرون . . فإذا قول الاطباء آنذاك قد ثبت خطؤه وخطله . . وإذا قول فقهاء الاسلام

ومحدثيه هو الحق الذي لا مرية فيه . . لا لأن الفقهاء والمحدثين أعلم بالطب من الاطباء حينئذ . . ولكن لأنهم استناروا بنور النبوة فأضاءت لهم السبل وأوضحت لهم المسالك والدروب . . فكان ما قالوه وذهبوا اليه هو الحق الذي يثبت على مدى الايام والازمان . . بينما قول أولئك الاطباء يذهب جفاء « فأما الزبد فيذهب جفاء . وأما ما ينفع الناس فيمكث في الارض » .

قلنا إن هناك نوعين من الطواعين . . الاول هو الطاعون الغددي الذي أفضنا في ذكره . . والثاني هو **الطاعون الرئوي** :

والطاعون الرئوي أشد أنواع الطواعين وأخطرها على الاطلاق . . ولا يكاد ينجو منه أحد وتبلغ الوفيات فيه تسعين في المائة وأكثر . .

ويفترق الطاعون الرئوي عن الطاعون الغددي بعدة فروق :

أولها : أن انتقال العدوى في الطاعون الغددي تكون بواسطة البراغيث والحشرات الى الانسان . . أما في الطاعون الرئوي فيبصق المريض دما وقيحا . . وتنتقل الميكروبات

الموجودة في البصاق بواسطة التنفس من المريض الى السليم . . فتصيب الرئتين والقلب مباشرة . .

وثانيها : أن الطاعون الغددي يصيب الغدد اللمفاوية اولا فتتضخم . . ثم ينتقل بعد ذلك الى الدم وتكون إصابة القلب والرئتين ثانوية . . بينما يصيب الطاعون الرئوي الرئتين والقلب مباشرة . . ولذا لا تظهر أي غدد لمفاوية في الآباط والمراق . . لأن الاصابة داخلية . .

وثالثها : أن الطاعون الرئوي أشد فتكا من الطاعون الغددي . . ولا يكاد ينجو منه أحد الا إذا عولج بسرعة فائقة بالمضادات الحيوية والاوكسجين . . وأدوية هبوط القلب . .

والآن لننظر هل تفطن علماء الاسلام الى هذا النوع من الطواعين ؟ . الغريب حقا أن نجد الامام الغزالي يتحدث عن الطاعون الرئوي بصورة تتفق تماما مع ما يقوله الطب الحديث وتختلف الى أبعد مدى عما يقوله الاطباء في زمنه .

يقول الامام الغزالي كما ينقله عنه ابن حجر في فتح الباري : إن الهواء (في البلدة المصابة بالطاعون) **لا يضر من**

---

(١) كتاب الطب جـ ١٠/١٨٩ .

حيث ملاقاته ظاهر البدن بل من حيث دوام استنشاقه فيصل الى القلب والرئة فيؤثر في الباطن ولا يؤثر في الظاهر الا بعد التأثير في الباطن » .

وهذا بالضبط ما تتحدث عنه المراجع الطبية الحديثة . إن الهواء المشبع بميكروب الطاعون لا يصيب الجلد . . وإنما ينتقل بواسطة الاستنشاق الى الرئتين ومنها الى القلب . . ولذا تكون الاعراض أشد وهبوط القلب أسرع في الطاعون الرئوي عما هي عليه في الطاعون الغددي ، وفي خلال ثلاثة أيام منذ بدء الاعراض يلاقي المصاب بالطاعون الرئوي حتفه في الغالب الاعم ما لم يعالج بسرعة فائقة . . وهكذا ترى عبارة الامام الغزالي « إن الهواء لا يضر من حيث ملاقاته ظاهر البدن بل من حيث دوام استنشاقه فيصل الى القلب والرئة فيؤثر في الباطن . ولا يؤثر في الظاهر الا بعد التأثير في الباطن » . . تراها دقيقة كل الدقة بارعة كل البراعة . . ولا يكاد يعرفها اليوم الا المتخصصون من الاطباء .

حديث الطاعون والطب الوقائي : حددت الاحاديث الطبية الشريفة ماذا ينبغي على المرء أن يفعله إذا ظهر الوباء : « إن هذا الطاعون رجز على من كان قبلكم فإذا كان بأرض فلا تخرجوا منها فرارا منه . وإذا كان بأرض فلا تدخلوها » .

وحديث عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه « إذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه . وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فرارا منه » .

وحديث عائشة : « غدة كغدة الابل . . المقيم فيها كالشهيد والفار منها كالفار من الزحف » .

وحديث جابر : « الفار من الطاعون كالفار من الزحف . والصابر فيه كالصابر في الزحف » .

أخرجه أحمد

إن الحجر الصحي يعتبر من أهم وسائل مقاومة انتشار الامراض الوبائية . . ويظهر بجلاء مما تقدم أن الاحاديث النبوية الشريفة قد حددت مبادىء الحجر الصحي كاوضح ما يكون التحديد . . فهي تمنع الناس من الدخول الى البلدة المصابة بالطاعون كما أنها تمنع أهل تلك البلدة من الخروج منها . .

ومفهوم الحجر الصحي مفهوم حديث لم تعرفه البشرية الا في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل العشرين ولا تزال تتعثر في تنفيذه الى اليوم . .

ومنع السليم من الدخول الى أرض الوباء قد يكون مفهوما بدون الحاجة الى معرفة دقيقة بالطب . . ولكن منع سكان البلدة المصابة بالوباء من الخروج وخاصة منع الاصحاء منهم يبدو عسيرا على الفهم بدون معرفة واسعة بالعلوم الطبية الحديثة . . فالمنطق والعقل يفرض على السليم الذي يعيش في بلدة الوباء أن يفر منها الى بلدة سليمة حتى لا يصاب هو بالوباء !!

هكذا يقول العقل والمنطق . . لماذا تبقى في بلاد الوباء وتنتظر حتى يأتيك الوباء والموت . . والفرار من الوباء والهلاك تفرضه غريزة حب البقاء كما يفرضه المنطق والعقل . . وقد يقول لك قائل « ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة » . . والبقاء في أرض الوباء تهلكة أي تهلكة . .

ولكن الطب الحديث يقول لك : إن الشخص السليم في منطقة الوباء قد يكون حاملا للميكروب وكثير من الأوبئة تصيب العديد من الناس ولكن ليس كل من دخل جسمه الميكروب يصبح مريضاً . . فكم من شخص يحمل جراثيم المرض دون أن يبدو عليه أي أثر من آثار المرض . . فالحمى الشوكية وحمى التيفود والزحار الاميبي والباسيلي والسل بل وحتى الكوليرا والطاعون قد تصيب أشخاصا عديدين دون أن

يبدو على أي منهم علامات المرض بل ويبدو الشخص وافر الصحة سليم الجسم . . ومع ذلك فهو ينقل المرض الى غيره من الاصحاء . .

وهناك أيضا فترة الحضانة . . وهي الفترة الزمنية التي تسبق ظهور الأعراض منذ دخول الميكروب الى الجسم . . وفي هذه الفترة يكون انقسام الميكروب وتكاثره على أشده ومع ذلك فلا يبدو على الشخص في فترة الحضانة هذه أنه يعاني من أي مرض . . ولكنه بعد فترة قد تطول وقد تقصر على حسب نوع المرض والميكروب الذي يحمله تظهر عليه أعراض المرض الكامنة في جسمه .

ومن المعلوم ان فترة حضانة الانفلوينزا مثلا هي يوم أو يومان . . بينما فترة حضانة التهاب الكبد الفيروسي قد تطول الى ستة أشهر . . كما أن ميكروب السل قد يبقى كامنا في الجسم عدة سنوات طوال دون أن يحرك ساكنا . . ولكنه لا يلبث بعد تلك الحقبة من الزمن أن يستشري في الجسم . .

والشخص السليم الحامل للميكروب أو الشخص المريض الذي لا يزال في فترة الحضانة يعرض الآخرين للخطر دون أن يشعر هو أو يشعر الآخرون . .

ولذا جاء منع الرسول صلوات الله عليه أهل البلدة المصابة بالوباء من أن ينتقلوا منها تشريعا رائعا . . ومعجزة علمية ظهرت حقيقتها اليوم بعد مضي أربعة عشر قرنا من الزمان . .

فالشخص السليم في المنطقة الموبوءة قد يكون حاملا للميكروب كما قد يكون في فترة الحضانة فإذا خرج من بلدته تلك لم يلبث أن يظهر عليه الوباء . . فيعدي غيره وينقل بذلك المرض الى آلاف بل الى ملايين البشر . .

لذا جاء المنع شديدا . . وجاء الوعيد مرعبا مخيفا . . والفّار من الطاعون كالفار من الزحف . . كما جاء الوعد مرغبّا وحاثا أشد الحث على الاقامة والصبر . . « المقيم فيه كالشهيد » . . « والصابر فيه كالصابر في الزحف » . . « والمطعون شهيد » . .

إن الوعد والوعيد للمؤمنين أهم من كل الاجراءات القانونية التي تتخذها الامم اليوم . . فالقانون يسهل التحايل عليه مهما كانت الاجراءات مشددة في تطبيقه . . أما عذاب الآخرة فأمر لا يستهين به المؤمن مطلقا . . وأمام هذا الوعيد المرعب تذوب نفس المؤمن فيصبر وينفتح أمامه باب الرجاء

وباب الأمل في الدنيا والآخرة . . فهو كالمجاهد في سبيل الله ينتظر احدى الحسنيين إن افلت من الوباء وقد صبر فله أجر المجاهد . . وإن اخترمته المنية فلن يفوته أجر الشهادة . . وقد قال رسول الله ﷺ : « المطعون شهيد والمبطون شهيد » والمطعون هو الذي يموت في الطاعون . . والمبطون هو الذي يموت نتيجة اصابته بالاسهال الشديد . . وهو اغلب ما يكون في الكوليرا . .

والطاعون والكوليرا هما أخطر الأمراض الوبائية وأسرعها انتشارا . . والحجر الصحي أوجب ما يكون فيها وقد أشار اليهما الحديث النبوي لأهميتهما الخاصة . . وأغلب فقهاء المسلمين يحرمون الخروج من البلاد المصابة بالطاعون . . وقد رأى بعض الفقهاء أن النهي للتنزيه فيكره ولا يحرم . . ولكن رأى الجمهور يذهب الى التحريم لا الكراهة[١] .

لذا كانت الأوامر النبوية بالعزل والحجر الصحي سبقا لكل التصورات والاجراءات الطبية والوقائية طوال هذه العهود والآماد . . فكيف يتأتى لمن عاش في القرن السادس الميلادي أن يتحدث عن مبادىء الحجر الصحي التي لم تعرف الا بعد

(١) راجع كتاب الطب من فتح الباريء شرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني في الجزء العاشر ص ١٨٨

معرفة الميكروبات وطريقة انتقالها وفترة حضانتها . ومن هو حامل الميكروب وكيف يمكن ان يكون صحيحا معافى من ينقل المرض الى غيره ؟ كل هذه معلومات حديثة لم نتوصل اليها الا في القرن العشرين . فكيف يتأتى لمن عاش في القرن السادس والسابع الميلادي ان يعرف هذه الابعاد فيصدر أوامره وتعليماته بأن لا يدخل أرض الوباء أحد وأن لا يخرج من أرض الوباء أحد ؟

لا يمكن أن يتأتى ذلك لبشر الا أن يكون رسولا نبيا . . فإن حديث الطاعون معجزة كاملة من معجزات الرسول صلوات الله عليه . . ودليل قاطع على صدق رسالته . . إذ لا يمكن لبشر عاش في ذلك الزمان أن يعلم ما في الغيب الا أن يوحى اليه . وكل ما يتعلق بالحجر الصحي كان غيبا من الغيوب التي أظهرها الله الى عالم الشهادة في القرن العشرين . . وإخبار النبي صلوات الله عليه بذلك معجزة لا ريب فيها .

وقد حاول علماء الاسلام الأجلاء أن يشرحوا هذه الحقائق البعيدة التي لا تزال في طي الغيب وأن يصلوا الى هذه القمة السامقة التي وصلتها التوجيهات النبوية التي لم يكشف عنها الا اليوم . . فأحسنوا الجهد ولكن أنّى لهم أن يصلوا الى كل هذه الاسرار . . ونحن لم نعرف الميكروبات وخصائصها وفترة

الحضانة وحامل المرض الا اليوم في القرن العشرين . . ومع ذلك انظر الى الامام الغزالي وكأنه يستشف من وراء الغيب حقيقة حامل الميكروب وفترة الحضانة فتعلم أنه يرى بنور النبوة لا بنور الحقائق العلمية الطبية المعلومة له آنذاك .

يقول الامام الغزالي : « إن الهواء (في البلدة المصابة بالوباء) لا يضر من حيث ملاقاته ظاهر البدن بل من حيث دوام الاستنشاق فيصل الى القلب والرئة فيؤثر في الباطن ولا يظهر على الظاهر الا بعد التأثير في الباطن . « **فالخارج من البلد الذي يقع به (الوباء) لا يخلص غالبا مما استحكم به** » ولذا فهو ينطلق حاملا معه الميكروب الى بلاد أخرى فينقل بذلك العدوى الى غيره من البشر بسبب خروجه من بلدته المصابة بالوباء .

ويقول الامام ابن القيم : « وأما نهيه عن الخروج من بلده ففيه معنيان :

احدهما : حمل النفوس على الثقة بالله والتوكل عليه والصبر على أقضيته والرضا بها .

والثاني : ما قاله الاطباء أنه يجب على كل محترز من الوباء أن يخرج بدنه من الرطوبات الفضلية ويقلل الغذاء ويميل الى

التدبير المجفف من كل وجه الا الرياضة والحمام فيجب أن يحذرا ، بل يجب عند وقوع الطاعون السكون والدعة وتسكين هيجان الأخلاط . . ولا يمكن الخروج من أرض الوباء والسفر منها إلا بحركة شديدة وهي مضرة جداً .

وهذه نقطة هامة . . إذ أن الشخص المعرض للوباء تقل مقاومته مع الاجهاد العضلي فالراحة والاخلاد الى الهدوء يزيد من مقاومة الجسم للأوبئة والجراثيم . . وشدة الحركة والاجهاد تضعف المقاومة .

ولا يعيب ابن القيم أن يفوته أن خروج الشخص من أرض الوباء ولو كان يبدو سليما قد يكون سببا في انتشار الوباء الى أصقاع الأرض نتيجة سفره . . لأن ذلك لم يعلم الا في القرن العشرين . . ويكفي ابن القيم فخراً أن تنبه الى حكم وأسرار كثيرة عارض بها الاطباء في زمنه واثبت الطب الحديث صدق ما ذهب اليه ابن القيم الامام الفقيه !

ومع هذا نرى أن ما فات الامام ابن القيم في هذه النقطة لم تفت الامام الغزالي فذكرها رغم ان الطب في زمنه لم يكن يعلم عنها شيئا . .

واستمع مرة أخرى الى الامام ابن القيم وهو يلخص

أسباب المنع من الدخول الى أرض الوباء بعد أن استمعنا اليه وهو يشرح أسباب منع الخروج من أرض الوباء فيقول : « وقد جمع النبي ﷺ في نهيه عن الدخول الى الأرض التي هو (أي الوباء) بها ونهيه عن الخروج منها بعد وقوعه كمال التحرز منه . فإن في الدخول في الأرض التي هو بها تعريضا للوباء وموافاة له في محل سلطانه . . وإعانة الانسان على نفسه وهذا مخالف للشرع والعقل بل تجنبه الدخول الى أرضه « أي أرض الوباء) من باب الحمية التي أرشد الله سبحانه اليها وهي حمية عن الامكنة والأهوية المؤذية » .

« وفي المنع من الدخول الى الأرض التي وقع بها عدة حكم : ـ

الأولى : تجنب الاسباب المؤذية والبعد منها .

والثانية : الأخذ بالعافية التي هي مادة المعاش والمعاد .

والثالثة : أن لا يستنشقوا الهواء الذي قد عفن وفسد فيمرضون .

الرابعة : أن لا يجاوروا المرضى الذين قد مرضوا بذلك فيحصل لهم بمجاورتهم من جنس أمراضهم .

الخامسة : حمية النفوس عن الطيرة والعدوى فإنها تتأثر بهما فإن الطيره على من تطيّر بها .

وبالجملة فالنهي عن الدخول في أرضه الأمر بالحذر والحمية ، والنهي عن التعرض لاسباب التلف . . وفي النهي عن الفرار منه الأمر بالتوكل والتسليم والتفويض . . فالأول تأديب وتعليم والثاني تفويض وتسليم .

ا ـ هـ . من الطب النبوي

وهناك العديد العديد من الحكم في هذا الحديث .

ومن هذه الحكم أن هذه الاحاديث النبوية الشريفة تنزل بردا وسلاما على المؤمنين الذين أوقعتهم الاقدار في بلدة أصيبت بالوباء «إذا وقع بأرض فلا تخرجوا فرارا منه». .« والفار من الطاعون كالفار من الزحف » . . والى اين تفرون ؟ أمن الموت تفرون . . فإنه ملاقيكم ولو كنتم في بروج مشيّدة . . فالآجال مضروبة محدودة والوباء والمرض لن يصيب الا من كتب عليه ذلك . . ولو لم يكتب عليه لما أصابه . . فليطمئن نفسا وليهدأ بالا . . ولا تذهب نفسه حسرات وليعلم بعد ذلك أنه لو مات مات شهيدا ، . . « فالمطعون شهيد والمبطون

شهيد » وهو في ذلك كالمجاهد ينتظر احدى الحسنيين إما النصر أو الشهادة . . وهو كذلك إما الانتصار على الوبـاء أو الشهادة . . وفي الحديث الآخر : « الطاعون شهادة لكل مسلم » وكما أن القتال والجهاد تنال به الشهادة فإن الطاعون كذلك . . ولا بد من استيفاء شـروط الشهادة في كـلا الحالتين . . فلا بد للحصول على درجة الشهادة من القتال في سبيل الله لاعلاء كلمة الله مقبلا غير مدبر . . وكذلك شهادة المطعون لا تنال الا بالصبر والرضى بقضاء الله . . وفي الحديث الذي أخرجه البخاري : « فليس من عبد يقع الطاعون فيمكث في بلده صابرا يعلم أنه لا يصيبه الا ما كتبه الله له الا كان له مثل أجر الشهيد » . وفي رواية أحمد « فيمكث في بيته » بدل « فيمكث في بلده » **ويقول ابن حجر العسقلاني** : قوله (صابرا) أي غير منزعج ولا قلق بل مسلّما لامر الله راضيا بقضائه وهذا قيد في حصول أجر الشهادة لمن يموت بالطاعون . وهو أن يمكث بالمكان الذي يقع به فلا يخرج فرارا منه كما تقدم النهى في الباب صريحا . . وقوله « يعلم أنه لن يصيبه الا ما كتب الله له » قيد آخر . . فلو مكث وهو قلق أو متندم على عدم الخروج ظانا أنه لو خرج لما وقع به أصلا ورأسا وأنه باقامته يقع به فهذا لا يحصل له أجر الشهيد ولو مات بالطاعون . هذا الذي يقتضيه مفهوم هذا الحديث كما اقتضى منطوقه ان من

اتصف بالصفات المذكورة يحصل له أجر الشهيد وإن لم يمت بالطاعون » أ . هـ . من فتح الباري .

وليتخذ من الاسباب ما شاء فإنها لن تنجيه الا بقدر الله . . وعليه أن لا يعتمد على الاسباب وانما يكون اعتماده وتوكله وثقته بالله وحده . . وليتخذ الاسباب وسيلة فإنه مأمور باتخاذها وسيلة فحسب .

وبهذا تستقيم نفس المؤمن وتطمئن . . وتستقيم الحياة فلا تكون قلقا كلها . . ولا ضراما كلها . . وانما تكون نفس المؤمن هادئة مطمئنة فهي تعلم أن ما أصابها لم يكن ليخطئها وما أخطأها لم يكن ليصيبها . . وأن الأمر لله من قبل ومن بعد فعليه تعتمد وتتوكل وتثق . . وتتخذ الاسباب وهي تعلم أن ليست الاسباب مانعة قدر الله ولكنها تتخذها لأنها من قدر الله كما قال عمر بن الخطاب لابي عبيدة بن الجراح رضي الله عنهما عندما قال ابو عبيدة : أفرارا من قدر الله قال عمر : لو غيرك قالها يا ابا عبيدة . . نعم نفر من قدر الله الى قدر الله . .

وذلك هو كمال الايمان وكمال التوحيد . . التوكل على الله وحده والأخذ بالاسباب لأنها من قدر الله . . وهو مأمور باتخاذها .

تلك هي القمة السامقة التي تجتمع في قلب المؤمن ولا تجتمع لاحد غيره . . والفرق بين القمة والسفح هو الفرق بين النور والظلام . . والفرق بين الكفر والايمان .

والله الهادي الى سواء السبيل .

جهَاز المنَاعَة العَجيب

إن الميكروبات والطفيليات المختلفة تحيط بنا بل وتعيش في أجسامنا ولولا أن الله قد أقام لنا جهاز مناعة . . لما استطعنا أن نعيش في هذه الدنيا سويعات ، بل لولا جهاز المناعة العجيب لغزت الميكروبات الجنين وهو لا يزال في بطن أمه . .

وقد جعل الله للجنين جهاز وقاية يتمثل في الغشاء المشيمي الذي يمنع عنه أغلب الميكروبات والمواد الضارة . . كما جعل له من مواد المناعة التي تعطيه إياها الأم وهو لا يزال في بطنها ما يقيه شر الميكروبات اثناء الحمل وبعد الولادة . .

وقد وجد ان المواليد لديهم من مواد المناعة من الأم ما يكفيهم في الغالب لستة أشهر ريثما تتكون أجهزة مناعتهم . . كما وجد العلماء حديثا أن لبن الأم به كميات وافرة من مواد المناعة فتساعد

على صد هجوم الميكروبات والبكتريا والفيروسات .

وقد جعل الله للجسم عوازل وموانع طبيعية تقيه شر الميكروبات ونوجزها فيما يلي :

١) **الجلد** : وقد جعل الله الجلد جهازا واقيا ضد أغلب الميكروبات ولا يستطيع اختراقه مباشرة الا ما ندر منها مثل ميكروب الزهري والسيلان (الامراض التناسلية) وبعض المكورات العنقودية Staphylococci . . فإذا ما أصيب الجلد بجروح أوقروح أوحروق فإن الميكروبات تجد لها وسيلة للولوج الى داخل الجسم حينما يتحطم هذا العازل المنيع . .

٢) **الاغشية المخاطية** : الموجودة في الجهاز الهضمي ابتداء من الفم والبلعوم والمعدة . . والجهاز التنفسي والجهاز البولي التناسلي وافرازات هذه الاجهزة . . فاللعاب به مواد قاتلة للميكروبات وافراز المعدة الحامضي لا تستطيع اغلب الميكروبات أن تعيش فيه . .وفي الدموع مواد قاتلة للميكروبات . . وكذلك إفراز الصفراء من الكبد وإفرازات المهبل الحامضية تقتل كثيرا من الميكروبات الضارة . . وكذلك تفعل إفرازات البروستاتا . .

وفي الجهاز التنفسي تقوم الافرازات المخاطية الخفيفة بقتل الميكروبات وتقوم الشعيرات الدقيقة التي تغطي الجهاز التنفسي

باكمله ما عدا الحويصلات الهوائية ، تقوم بطرد المواد الغريبة وليست الكحة إلاّ رد فعل لنزول مواد غريبة الى الشعيبات الهوائية فتقوم بطردها بواسطة الكحة (السعال) .

وفي الجهاز الهضمي يقوم حامض المعدة بقتل أغلب الميكروبات . . وفي الأمعاء تقوم بكتريا وفيروسات الأمعاء المتعايشة معنا في وئام وسلام بمنع نمو البكتريا والفيروسات المرضية . . كما تقوم هذه الميكروبات بامدادنا بفيتامين ب المركب . . وفي الحيوانات المجترة تساعد هذه البكتريا في عملية هضم الطعام (وخاصة مادة السليلوز الصعبة الهضم) . ويحتوي البراز الطبيعي على ١٠ ـ ١٢ ميكروب في كل جرام من البراز . فإذا أراد الله تعالى تنقلب هذه الميكروبات النافعة الى ميكروبات ضارة قاتلة .

وفي الجهاز البولي تموت معظم الميكروبات نتيجة لحامضية البول ووجود مادة البولينا ومواد قاتلة للميكروبات ولا يستطيع العيش في هذا الجهاز الا بعض الميكروبات مثل ميكروب السيلان وميكروب الامعاء Gonococci and E. coli

وفي مهبل المرأة تقوم الميكروبات الصديقة من فصيلة دودرلين Doderline Bacilli بجعل إفرازات المهبل حامضية فتقتل بذلك معظم الميكروبات الضارة .

وهناك عوامل عامة مثل التغذية الجيدة والرياضة (غير المجهدة) فانها تزيد في مقاومة الجسم للامراض .

وأما الوسائل الخاصة لمقاومة الميكروبات فتتمثل في الدم وخلاياه . . وخلايا جهاز المناعة العجيب المنتشرة في مختلف انسجة الجسم . . وتتمثل هذه الوسائل في الخلايا الآكلة والخلايا اللمفاوية (البلغمية) وخلايا الدم البيضاء ومصل الدم وبروتينات خاصة بالمقاومة في الدم .

١) الخلايا الاكلة PHAGOCYTIC CELLS : وتقوم هذه الخلايا ببلع الميكروبات وهضمها وبالتالي قتلها . . وتستطيع بعض الميكروبات بخاصية غريبة أن تعيش داخل هذه الخلايا الآكلة بل وتستطيع ان تتكاثر بداخلها . . وللفيروسات عموما خاصية دخول الخلايا واستعمارها . . ومن البكتريا فصائل تستطيع ان تقاوم هذه الخلايا وتعيش بداخلها نذكر منها ميكروب السل وميكروب الجذام وميكروب السيلان وميكروب الالتهاب الرئوي ومن وحيدات الخلية ميكروب اللشيمانيا والترابنسوما .

وفي جسم الانسان نوعان من هذه الخلايا الآكلة وهي الخلايا الآكلة الكبيرة الحجم MACRO PHAGES والخلايا متعددة أشكال الانوية من خلايا الدم البيضاء POLYMORNUCLEAR

وتعتبر الخلايا ذات النواة الواحدة MONO- LEUCOCYTES CYTES والموجودة في الدم من الخلايا الآكلة كبيرة الحجم .

وبمجرد دخول الميكروب الى الجسم فإنه يؤدي الى صدور مواد كيماوية تجذب هذه الخلايا الآكلة الى موقعه فتسرع لمقاتلته ومحاربته . . وما الصديد الذي نراه الا جثث هذه الخلايا التي استشهدت في ميدان المعركة وجثث قتلاها من الميكروبات .

٢) **الخلايا اللمفاوية** : وهذه الخلايا منتشرة في الدم وفي أنسجة الجسم وهي تندرج تحت قسمين فصيلة T ومصدرها الغدة الثيموسية وفصيلة B ومصدرها نخاع (نقى) العظام . .

وأما فصيلة T فلها قدرة بأمر بارئها على الالتحام بالميكروبات او المواد الغريبة فتسبب تحللها وقتلها وهذا ما يعرف باسم CELL MEDIATED IMMUNITY أي المناعة بواسطة الخلايا . .

وأما فصيلة B فتصنع قذائف صاروخية مضادة للميكروبات والاجسام الغريبة . . فإذا ما دخل الميكروب تعرفت عليه ونفرت اليه طائعة من هذه الفرقة وتعرفت عليه ثم قامت بعد ذاك بصنع القذيفة المضادة له والقاتلة له . . (فلولا نفر من كل فرقة طائفة) .

وتختزن بعض خلايا هذه الفرقة في ذاكرتها (ويا عجبا لها من

ذاكرة !!) شكل الميكروب الذي غزا الجسم والقذيفة المضادة المناسبة في الحجم والمقدار القاتلة له . . فإذا ما قام هذا الميكروب مرة اخرى بالهجوم على الجسم تنبهت هذه الخلايا التي أعطاها الله ذكاءً خارقا وذاكرة عجيبة . . وقامت بالتكاثر بسرعة رهيبة وما هي الا يوم أو بعض يوم الا والقذائف تنهال على الميكروب أو الجسم الغريب من كل حدب وصوب . وفي دقة متناهية وبراعة قل أن يوجد لها نظير . . فلا يفلت منها الا أن يشاء الله فيجعل لذلك الميكروب قدرة على صنع اسلحة مضادة لهذه القذائف المضادة . . فتكون المعركة عندئذ رهيبة ساحتها أنسجة الجسم وخلاياه . ويكتب الله الفوز والغلبة لمن يشاء من خلقه « وما النصر الا من عند الله » .

ولا نعلم نحن الا القليل عن جهاز المناعة هذا وعن أجهزة الميكروبات المخاتلة المخادعة . .

العوامل التي تضعف جهاز المناعة في الانسان

ومما نعلمه عن جهاز المقاومة والمناعة انه يضعف بالعوامل التالية :

١) التدخين : تقوم المواد السامة الموجودة في التبغ بالتأثيرعلى مختلف انسجة الجسم واضعاف مقاومتها . . ويتجلى ذلك في

الجهاز التنفسي حيث يقوم دخان التبغ بتحطيم الشعيرات الدقيقة الموجودة في هذا الجهاز والتي كانت تطرد الميكروبات والمواد الغريبة بحركتها الدائبة الى أعلى فتمنع وصول الميكروبات الى الرئتين . ونتيجة لتحطم هذه الشعيرات تتجمع الميكروبات والمواد المخاطية وتندفع الى الرئتين بدلا من طردها الى الخارج . . فتقوم حينئذ عملية السعال بمحاولة طرد هذه المواد . . وتزداد المواد المخاطية لزوجة فلا تندفع الى أعلى وانما تهبط الى أسفل فتسد منافذ الشعيبات الهوائية مما يسبب الالتهابات المتكررة المزمنة وتحطيم الرئتين بالمرض المعروف باسم امفيزيما . .

٢) شرب الخمور : تقوم الخمور باضعاف فاعلية الخلايا الآكلة للميكروبات وذلك باضعاف حركتها . . إذ أن وظيفة هذه الخلايا هي المبادرة الى الميكروب في موقع الهجوم واكتساحه . . فتقوم الخمور بشل خلايا الدم البيضاء وتسكرها فهي ثملة مترنحة لا تفيق من سكرتها الا وقد عاثت الميكروبات في الجسم فسادا . W.B.C. IMMOBILISATION .

٣) استخدام المضادات الحيوية : لقد اعتبرت هذه المضادات من اعظم النعم التي منحها الله للانسان واكتشفها في العصر الحديث . . (١٩٥٠ وما بعده) . . ولكن هذه المضادات الحيوية تقتل فيما تقتل الميكروبات النافعة المتعايشة معنا في وئام

وسلام . . وقد كانت من قبل تمنع الميكروبات الضارة من النمو . . فلما جاءت المضادات اختل ذلك التوازن . . وسمح ذلك للميكروبات الضارة بالنمو والاغرب من ذلك ان بعض الميكروبات التي كانت نافعة تنقلب الى العتو والعدوان .

ولذا فينبغي الحذر في استعمال هذه المضادات الحيوية وهي تستخدم في بلاد المسلمين والبلاد النامية عموما بدون امر الطبيب . . وذلك مما يسبب كثيرا من الاضرار إذ تفقد هذه المضادات فاعليتها بسبب سوء الاستعمال كما انها قد تسبب أمراضاً اخطر وأشد من تلك التي استخدمت من أجلها . .

٤) **استخدام أدوية الكورتيزون ومشتقاته** : والكورتيزون سلاح شديد المضار ذو حدين اما حاربت به مرضا وإما قتلت به صديقا . . ويستخدم الكورتيزون ومشتقاته في كثيرمن الامراض المستعصية الشديدة التي لا تستجيب للادوية الاخرى مثل الربو الشديد وبعض انواع الروماتيزم الشديدة وبعض أمراض الحساسية القوية . . وسرطان خلايا الدم اللمفاوية . . وغيرها من الامراض الخطيرة . . وينبغي ان يكون العلاج تحت اشراف طبيب مختص . . والا فقد يكون الضرر أكبر من النفع . .

ولقد وجدت أناسا يستخدمون الكورتيزون دون استشارة طبيب وكفاتح للشهية !!

٥) **الجماع اثناء الحيض**: فالمحيض أذى كما وصفه المولى تعالى بقوله « ويسألونك عن المحيض قل هو أذى فاعتزلوا النساء في المحيض ». فان وجود الصديد والدم يزيد من شراسة الميكروبات كما أن حامضية المهبل تكون في ادنى درجاتها وكذلك تسلخات غشاء الرحم تشبه تسلخ الجلد فيسمح ذلك لنمو البكتريا . .

٦) **أمراض تضعف المقاومة** : وهناك كثير من الامراض غير المعدية ولكنها تضعف مقاومة الجسم للامراض المعدية نذكر من ذلك مرض البول السكري وخاصة إذا كان شديدا وبدون علاج فإنه يساعد على نمو الميكروبات المختلفة وخاصة منها التي كانت تعيش معنا في وئام وسلام مثل فطر كانديدا . . وكذلك الامر في الاورام وخاصة الاورام اللمفاوية وسرطان الدم فإن ذلك يضعف المقاومة كثيراً ويجعل الجسم مرتعا خصبا لنمو الميكروبات والطفيليات وخاصة التي كانت تعيش معنا من قبل في وئام وسلام . .

وهناك أمراض خلقية بها نقص في مواد المناعة أو خلايا الدم البيضاء أو الخلايا اللمفاوية التي تصنع المضادات للاجسام الغريبة ANTIBODIES أو نقص في احد هذه المضادات فقط . . كما أن هناك أمراضا تصيب الخلايا اللمفاوية من فصيلة T أي التي يقوم جهاز المناعة فيها على الخلايا CELL MEDIATED IMMUNITY

كما أن هنـاك امراضا خلقية بها نقص في الخلايا اللمفاوية من فصيلة B التي تصنع القذائف المضادة ANTIBODIES أو نوع واحد من هذه القذائف .

٧) **الحمل** : يضعف الحمل المقاومة نسبيا في الجهاز البولي فقط . .

٨) **بداية العمر ونهايته** : فالبداية ضعف والنهاية ضعف وشيبة : « الله الذي خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ، ثم جعل من بعد قوة ضعفا وشيبة » (الروم ٥٤) وفي البداية والنهاية ضعف في القوى وضعف في مقاومة المـيكروبـات والامراض . . وليست هذه القاعدة بدون شذوذ . . فبعض الميكروبات والفيروسات اذا دخلت في الطفولة الباكرة وذلك مثل فيروس شلل الاطفال . . والجديري (العنقز) والنكاف والحصبة الالمانية أصابت الطفل إصابة خفيفة إلا فيما ندر ، فإذا ما أصابت الصبي واليافع والشاب أصابته إصابة بالغة . .

٩) **سوء التغذية** : ولسوء التغذية ونقص البروتينات والفيتامينات أمراض ومن جملتها ضعف المقاومة وجهاز المناعة . .

وهذا كلام عام يدخل فيه تخصيص . . وقد يصاب الرجل القوي الموفور الصحة بالميكروب فيصرعه ويصاب به آخر هزيل

يعاني من نقص التغذية فلا يسبب له أي أذى . .

فهنالك عوامل كثيرة متداخلة متشابكة ومانعلمه منها ليس الا القليل والنزر اليسير . . فما شاء الله جعله سببا للصحة والعافية ولو كان في اصله سببا للداء وما شاء جعله سببا للسقم والمرض وإن كان في أصله سببا للعافية فله الخلق والأمر وحده ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن .

مُلحَق يُوضِح أسبَاب العَدوَى لِلمُهتمّين بالعُلوُم الطبيّة

الفيروسات :

تعتبر الفيروسات أدق وأصغر المخلوقات التي تمكن الانسان من معرفتها . . وقد كانت تسمى الحمات الراشحة لانها تترشح من أدق المسام . . وقد تمكن العلماء من عزلها وتصويرها وذلك بواسطة المجهر الاليكتروني . . وأهم تقسيم لها هي أنها تحتوي على أحد الحمضين النوويين D. N. A. أو R.N.A. ولا تجمع بينهما قط كما تفعل بقية الخلائق الحية .

وليست لدى الفيروسات خمائر (انزيمات) مثلما هي موجودة لدى البكتريا ولذا فإن المضادات الحيوية لا تجدي فتيلا في محاربتها . . والى الان لا توجد وسيلة فعالة في

محاربتها سوى التطعيم .. وهو إدخال الفيروس مضعفا أو ميتا الى جسم الانسان حتى تتعرف عليه أجهزة المناعة لديه فتقوم بصنع الاسلحة المضادة فاذا ما تم هجوم فيروس من هذا النوع في المستقبل تمكن الجسم من المقاومة بما لديه من عدة وعتاد ..

وبهذه الطريقة استطاع الانسان بمشيئة الله وبما علمه اياه القضاء على وباء الجدري قضاء تاما .. واستطاع أن يخفف حالات شلل الاطفال والحمى الصفراء وغيرها من الامراض الفيروسية والبكترية المعدية ..

ويتكون الفيروس في صورته الكاملة المعدية من الآتي :

(١) حامض نووي (وهو إما D.N.A أو R.N.A.)

(٢) كبسولة محيطة بالحامض النووي وهي إما أن تكون على شكل حلزوني لولبي أو متعدد الاضلاع Polyhedral .

ويحيط بالجميع غلاف خارجي .. ويبلغ قطر هذا الفيروس على هذه الهيئة ١٨ الى ٣٠٠ نناميتر (والنانا ميتر واحد على بليون من الميتر) .

وعندما يهاجم الفيروس الخلايا يدخل في فترة اختفاء

كامل بحيث لا تستطيع أجهزة الانسان الحديثة التعرف عليه اذ أنه يخلع عنه غلافه الخارجي وبعض الفيروسات ليس لها غلاف أصلا . . كما يتخلص من الكبسولة المحيطة . . ولا يبقى منه الا الحامض النووي الذي به سر الجينات فيتعرف على سر الخلية ويقوم بالسيطرة عليها ويستعمرها ويستعبدها استعبادا لا نظير له بحيث انها تصبح تحت أمره فتصنع له ما يشاء . . وبما تعطيه من نفسها يتكاثر الفيروس . . ثم يفجر الخلية وينطلق ليستعمر مجموعة من الخلايا . . وتقوم بعض الفيروسات بتحويل الخلايا الى خلايا سرطانية مجنونة تنمو دون رقيب ولا حسيب فتحطم ما تجده أمامها حتى تقضي على جسم المريض . . ولكن الله جلت قدرته الذي أعطى لأضعف خلقه وأقلهم شأنا وأصغرهم وزنا وحجما هذه القدرة الهائلة المدمرة جعل للخلايا قدرة على مواجهة عدوان هذا الفيروس .

وهناك نوعان من الاسلحة تنتجها الخلايا لمحاربة الفيروس المعتدي هما مضادات الاجسام ANTIBODIES والمعترضات أو المتدخلات INTERFERONS فأما مضادات الاجسام الغريبة فمواد بروتينية تصنعها الخلايا (البلغمية) اللمفاوية بعد تعرفها على الميكروب مهما كان نوعه (فيروس ، بكتريا ، أو أحد الطفيليات من وحيدات الخلية

أو متعدد الخلايا مثل الديدان) . . وهي قذائف موجهة ضد الميكروب المعتدي ولا بد لصنعها أن تتعرف الخلايا اللمفاوية المسؤولة عن صنع هذه القذائف على نوع الميكروب ومن أي فصيلة من الفصائل هو حتى تصنع القذيفة المضادة المناسبة لقتل ذلك الميكروب وصد عدوانه . . ولذا فلا تظهر في الدم الا في قمة عدوان الميكروب وتستمر بعد ذلك حتى بعد اختفاء الميكروب ـ والقضاء عليه . . وتختزن مجموعة من هذه الخلايا اللمفاوية في ذاكرتها بأمر بارئها وخالقها شكل وحجم الميكروب . . ومقاس وحجم وشكل القذيفة المضادة المناسبة له . . فاذا ما حدث وهجم ذلك الميكروب مرة اخرى فان هذه الخلايا العجيبة تنشط وتتكاثر بسرعة وتعطي معلوماتها لغيرها من الخلايا اللمفاوية وتصنع هذه الخلايا القذائف المضادة المطلوبة .

ولا شك أن مجال عمل هذه القذائف المضادة هو الدم فاذا اختفى الميكروب في داخل الخلايا فانها لا تصل اليه وتنتظره حتى يخرج ليهاجم خلايا اخرى فتقوم عندئذ بمهاجمته . .

ومنها مجموعة من القذائف التي تلتصق بالخلايا التي بها

الميكروب فتدمرها مع الميكروب . .

وقد استخدمت فكرة تكوين مضادات الاجسام بالتطعيم والتلقيح . . وذلك بادخال الميكروبات إما ميتة او مضعفة فتقوم الخلايا اللمفاوية بالتعرف على الميكروب وصنع القذائف المضادة . .

وفي بعض الامراض يعطى المريض مباشرة مضادات الاجسام التي جمعت من دماء مرضى سابقين أو دماء بعض الحيوانات التي سبق أن طعمت بالميكروب فتأخذ هذه المضادات وتعطى للمريض . .

ولا شك أن الافضل هو التطعيم بالميكروب الميت او المخفف ولكن ذلك يستغرق وقتا لتكوين المضادات وفي حالات المرض لا وقت للانتظار فتعطى عندئذ هذه المضادات الجاهزة وخاصة في مرض الكلب او التتانوس أو التهاب الكبد الفيروسي أو بعض حالات الحصبة الشديدة . . أو الدفتريا . . ومرض الكلب والتهاب الكبد الفيروسي والحصبة هي من الامراض الفيروسية بينما التتانوس (الكزاز) أو الدفتريا (الخناق) هي من الامراض البكترية .

وأما المعترضات أو المتدخلات (الانترفيرون) INTER-FERON فهي مواد بروتينية تصنعها خلايا الجسم اذا تعرضت لعدوى الفيروس . . وليست من اختصاص الخلايا اللمفاوية (البلغمية) فقط . .

ولا تؤثر هذه المواد على الفيروس مباشرة بل تذهب الى الخلايا السليمة فتعطيها قدرة بأمر الله على منع الفيروس من احتلالها واستعبادها واستخدام موادها لتكاثره . . وبذلك تعطيها مناعة ذاتية تفقد الفيروس قدرته على استعمار الخلايا واستعبادها . .

وبينما تتكون مضادات الاجسام بعد فترة من دخول الفيروس أو البكتريا وخاصة عندما يدخل هذا الميكروب لاول مرة حتى تتعرف عليه الخلايا اللمفاوية وتصنع المضاد المناسب . . فان الانترفيرون يتكون بعد سويعات من دخول الفيروس . . ولذلك حكمة عجيبة فان تكاثر الفيروسات سريع جدا وذلك بواسطة استعبادها لخلايا المصاب ولكن الله جلت قدرته جعل للخلايا قدرة هائلة على منع هذا الاستعباد وذلك بواسطة الانترفيرون . .

ويختفي الانترفيرون بعد بضعة أسابيع من القضاء على الفيروس بينما تبقى مضادات الاجسام لفترة طويلة في جسم

الشخص الذي أصيب بالميكروب . .

ويختلف الانترفيرون عن المضادات في انه خاص بالفيروسات بينما المضادات تصنع لمحاربة البكتريا والفيروسات والطفيليات بل وجميع الاجسام الغريبة . . وبينما مضادات الاجسام متخصصة لكل نوع من أنواع الفيروسات ولكل نوع من أنواع البكتريا فان الانترفيرون اقل تخصصا ولذلك فهو سلاح عام لكل فصيلة من فصائل الفيروسات . .

ولهذا فيمكن استخدامه لمحاربة الفيروسات على اختلاف انواعها كما أمكن حديثا استخدامه لمحاربة الخلايا السرطانية . . اذ انه يعطي الخلايا الاخرى قدرة على مقاومة الخلايا السرطانية وابطال مفعولها . . وبذلك يتوقف انتشار السرطان .

وقد تمكن العلماء حديثا من جمع هذه المادة الثمينة من الدماء الموجودة في بنوك الدم . . وبما أن كمية الانترفيرون الموجودة في الدماء قليلة جدا فان جمع بضعة ميليجرامات منها يكلف مبالغ طائلة . . ولذا فان الانترفيرون يعتبر من أغلى المواد الثمينة في العالم . . وهو لا شك أغلى من الذهب والبلاتين والالماس .

ويحاول العلماء الان أن يحصلوا على الانترفيرون من البكتريا وذلك بادخال مواد من الحامض النووي (الجينات) المتحكمة في صنع هذه المادة الثمينة . . وهذا ما يعرف الان باسم هندسة الجينات .

ويتوقع العلماء اذا نجحوا في ذلك ان يحدثوا ثورة في معالجة السرطان . وبهذا نعلم صدق حديث المصطفى صلوات الله عليه أن لكل داء دواء علمه من علمه وجهله من جهله « وما أنزل الله داء ألا أنزل له شفاء » أخرجه البخاري والنسائي وابن ماجة وابو نعيم في الطب النبوي ، واخرج مسلم وابن السنى وابو نعيم قوله ﷺ : « لكل داء دواء فإذا اصيب دواء الداء برىء باذن الله تعالى » . وأخرج البزار والحاكم وابن السنى وابو نعيم : «ما أنزل الله من داء الا أنزل له دواء علم ذلك من علمه وجهله من جهله الا السام يعني الموت » .

مملكة الفيروسات : قلنا أن الفيروسات اما ان تكون حاملة للحامض النووي R.N. A. او الحامض النووي D.N.A. .

وتندرج مئات بل الآف الانواع من الفيروسات تحت كل قسم من هذين القسمين . .

أ ـ فيروسات **R.N.A** : وتشمل الفيروسات الصغيرة جدا PICO R.N.A وفي هذه المجموعة مئات الانواع والفصائل واهمها المجموعة المسببة لشلل الاطفال POLIO VIRUSES والمجموعة المسببة لنزلات البرد والانفلونزا RHINO VIRUSES والمجموعة المسببة للالتهابات المعوية ECHO والرئوية COXSACKIE ومجموعة REOVIRUSES المسببة للالتهابات الرئوية المعوية والمجموعة المنقولة بواسطة وخز الحشرات ARBO وهي مجموعة واسعة تشمل ١٥٠ فصيلة وأشهرها الحمى الصفراء وحمى الدق DENGUE .. واخطرها المسببة لالتهابات الدماغ ENCEPHALITIS .

ب ـ فيروسات **D.N.A** : وتشمل أيضا مجموعة كبيرة من الفيروسات فمنها ما هو صغير جدا وهي المعروفة باسم PICO D.N.A ومنها المجموعة المسببة للاورام والثآليل PAPOVA VIRUSES ومنها الفيروسات الغدّية ADENO VIRUSES التي تصيب غدد البلعوم واللوز والجهاز الهضمي والتنفسي وملتحمة العين .. ومنها المجموعة المسببة لداء القوباء (هربس) والجديري وتدعى الفيروسات القوبائية HERPES VIRUSES ومنها

المجموعة المسببة للجدري ومرض العقد الملساء المعدية MOLLUSCUM CONTAGIOUSUM وتعرف هذه الفيروسات باسم الفيروسات النفاطية POX VIRUSES وهي من أكبر الفيروسات حجما اذ يبلغ قطر بعضها ٣٠٠ ننا ميتر (ننا ميتر يساوي واحد على بليون من الميتر).

مَراجع الكتاب

أ- العربيّة

١) فتح الباري شرح صحيح البخاري
للإمام ابن حجر العسقلاني

٢) شرح صحيح مسلم
للإمام النووي

٣) الطب النبوي
للإمام ابن القيم

٤) مفتاح دار السعادة
للإمام ابن القيم

٥) مقدمة ابن خلدون
عبد الرحمن بن خلدون

٦) روح الدين الاسلامي
عفيف طبارة

٧) تعريف عام بدين الاسلام
الشيخ علي طنطاوي

٨) القرآن الكريم والتوارة والانجيل والعلم
الدكتور موريس بوكاي

ب- الأجنبية

1) Price Text book of the Practice of Medicine 1966

2) Cecil and Loeb Text book of Medicine 1971

3) Synopsis of Tropical Medicine by sir Philip Manson - Bahy 1963

4) Encycolpedia Britanica 1975

5) Encyclopedia Americana 1967

6) A colowy Atlas of Tropical Medicine and Parasitology (Wolf Medical Atlases-17) 1977

7) Principles And Practice of Infectious Diseases By Mandell / Douglas / Bennett 1979
(Wiley Medical Publication)

8) Pathogenic Organisms And Infectious Diseases Published by Ciba-Geigy Ltd, Basle, Switzerland, 1971

9) Hexagon (Roche) 8 No 3 1980

10) Medicine International Vol No1 Jan 1981

الفهرس

وللمؤلف أيضًا

١) الخمر بين الطب والفقه

٢) التدخين واثره على الصحة

٣) خلق الانسان بين الطب والقرآن

٤) دورة الارحام

٥)عمل المرأة في الميزان .